محمد باقر الصدر

المرسل
الرسول
الرسالة

دار التعارف للمطبوعات
بيروت - لبنان

موجز
في أصول الدين



المرسل
الرسول
الرسالة

دار التعارف للمطبوعات
بيروت - لبنان

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

دار التعارف للمطبوعات

المكتب : شارع سوريا - بناية درويش - الطابق الثالث

الادارة والمعرض : حارة حريك - المنشية - شارع دكاش - بناية الحسنين

تلفون : ٨٣٧٨٥٧ - ٨٢٣٠١٠ - ٨٢٣٦٨٥

صندوق البريد : ٨٦٠١ - ١١ - ٦٤٣ - ١١

كلمتنا

عظمة الرجال ترتبط بما يقدم ويفيض على المجتمع من أفكار جديدة ومعارف حديثة ومناهج سديدة، وبما يكتشف من الجوانب العلمية الخافية على العلماء والمعنيين من المثقفين.

لقد انتهى أرسطو وأفلاطون وابن سينا والفارابي والرازي و. . . من عمالقة الفكر ورواد الابداع والاكتشاف بعد الإمعان والدقة إلى خرق جدار الطبيعة واستخراج الحقائق السامية الجديدة، لم يتوصل إليها أحد من قبل فكانوا من بناة صرح العلم والثقافة ومن طليعة المفكرين والأعلام في تاريخ الإنسان.

وتلمع من كل زمان أدمغة جبارة تشع نوراً وفكراً وخيراً على المجتمع وتحدو بهم إلى الرقي والتقدم.

ومن هؤلاء العظماء المفكر الإسلامي اللامع سيدنا المعظم المفدي السيد محمد باقر الصدر الذي كتب في حقول علمية مختلفة، وتطرق إلى أبحاث عديدة شذّ من يستطيع أن يلم بهذه الألوان المختلفة من الثقافات والأفكار.

فكتب في الفقه الإسلامي وفي أصول الفقه وتعمق في هذين العلمين حتى أصبح من مراجع علماء

المسلمين. وكتب في الفلسفة الغربية والشرقية وفند آرائهم وفنونهم ودمغهم بحجج ساطعة. وكتب في الإقتصاد الرأسمالي والإشتراكي ونسف خططهم ومبادئهم، وكتب في الإستقراء وأثره في العلوم الطبيعية مقارناً ذلك مع المناهج العلمية التي تدرس خالق الأرض والسماء منطلقاً من الأبحاث الرياضية.

لقد ألح عليه جمع من المؤمنين لطبع فتاويه، فاستجاب لرغبتهم ونداءاتهم، وسماه بـ « الفتاوى الواضحة » وطلبوا منه ثانياً أن يكتب في أصول الدين بشكل موجز فوضع مقدمة صغيرة طبعت مع « الفتاوى الواضحة » في الطبعة الثانية. وكان الإقبال منقطع النظير على أصل الكتاب ومقدمته.

ورأيت بأن الجيل المثقف يحتاج إلى معرفة ربه على أساس خطوات رياضية وأرقام حسابية، ولمست هذا الأمر موجوداً ومتوفراً في هذه المقدمة فطلبت من سماحته الموافقة على طبع هذه المقدمة بصورة مستقلة وإخراجها إلى المجتمع بشكل أنيق.

وقد أذن سماحته بذلك خدمة للعلم والدين.

وها أنا اليوم أقدم هذا الكتاب الصغير بحجمه، الكبير بمحتوياته إلى الشباب المعاصر والجيل الناشىء عسى أن يفيقوا من غيّهم ويعودوا إلى الصراط المستقيم، صراط الحق والهداية والنور.

وما أجري إلا على الله.

الناشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

طلب مني بعض العلماء الأعلام، وعدد كبير من طلبتنا ومن سائر المؤمنين، أن نقتدي بعلمائنا السابقين، ونقتفي آثارهم الشريفة في موضوع يزداد أهمية يوماً بعد يوم، وهو أنهم كانوا قد اعتادوا أن يقرنوا إلى رسائلهم العلمية أو يقدموا لها مقدمة موجزة تارة، وموسعة أخرى، لإثبات الصانع والأصول الأساسية للدين، لأن الرسالة العلمية تعبير إجتهادي عن أحكام الشريعة الإسلامية التي أرسل الله سبحانه وتعالى خاتم الأنبياء بها رحمة للعالمين، وهذا التعبير يرتكز أساساً على التسليم بتلك الأصول، فالإيمان بالله المرسل، وبالنبي الرسول، وبالرسالة التي أرسل بها، يشكل القاعدة لمحتوى أي رسالة علمية والدليل على الحاجة إليها.

وقد استجبت لهذا الطلب، شعوراً مني بأن في ذلك رضا الله سبحانه وتعالى، وبأن الحاجة التي يعبر عنها كبيرة، ولكني واجهت السؤال التالي: بأي أسلوب سأكتب هذه المقدمة؟ وهل أحاول أن تكون في الوضوح والتبسيط بنفس الدرجة التي عرضت بها « الفتاوى الواضحة » في هذا الكتاب، ليفهمه كل من يفهم الحكم الشرعي من تلك الفتاوى؟ وقد لاحظت أن هناك فارقاً أساسياً بين هذه المقدمة المقترحة، وبين « الفتاوى الواضحة »، فإن الفتاوى مجرد عرض لأحكام ولنتائج الإجتهاد والاستنباط،

بدون استدلال أو نقاش بينما المقدمة المطلوبة لا يكفي فيها مجرد الإستعراض، بل لا بد من الإستدلال لأن الواجب شرعاً في أصول الدين الإقتناع، ولأن الهدف من المقدمة ترسيخ دعائم الدين وأصوله، ولا يكون الترسيخ إلا بالإستدلال. غير أن الإستدلال له درجات أيضاً، وكل درجة حتى أبسط وأبده تلك الدرجات، مقنعة إقناعاً كاملاً. ولو كان الإنسان طليق الوجدان، لكفته أبسط ألوان الإستدلال على الصانع الحكيم، ليؤمن ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ « سورة الطور آية ٣٥ ». ولكن الفكر الحديث، منذ قرنين من الزمن. لم يترك هذا الوجدان طليقاً وصافياً، ومن هنا احتاج الإستدلال بالنسبة إلى من كان ملماً بالفكر الحديث ومناهجه في البحث، إلى تعميق وملأ الفراغات التي كان الإستدلال الأبسط والأبده، يترك ملأها للوجدان الطليق. وكان أمامي أحد خيارين: فإما أن أكتب لأولئك الذين لا يزالون يعيشون وجداناً طليقاً، بعيداً عن مسارات الفكر الحديث، وأكتفي بالإستدلال المبسط، وحينئذ سوف تكون العبارة، واضحة مفهومة لمعظم قراء « الفتاوى الواضحة ».

وأما ان أكتب لمن تفاعل مع الفكر الحديث، أو درس في إطاره، وتعرف بدرجة وأخرى على مواقفه من الإلهيات، فرأيت أن الأحرى هو الثاني وهكذا كان.

غير أني حاولت أن أكون على العموم واضحاً، فيما أكتب على مستوى المثقف الإعتيادي الجامعي، أو الحوزوي، وتجنب المصطلحات، ولغة الرياضة بقدر الإمكان، وتفاديت الإثارات المعقدة. وكنت في نفس الوقت أحفظ للقارىء الأكثر تعمقاً حقه في الاستيعاب. فأوجز بعض النقاط المعمقة وأحيله بعد ذلك في التوسع على كتبنا الأخرى. كالأسس المنطقية للاستقراء. وفي نفس الوقت مكنّا القارىء الأقل درجة، أن يجد في أجزاء من هذه المقدمة، زاداً فكرياً مفهوماً، واستدلالاً مقنعاً.

فالخطوة الأولى من الدليل العلمي الإستقرائي، على إثبات الصانع، يمكن أن تعتبر بمفردها شيئاً كافياً، وواضحاً على المستوى العام.

وسنتكلم عن المرسل أولاً، وعن الرسول ثانياً، وعن الرسالة ثالثاً. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب..

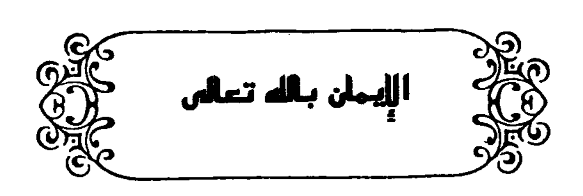




المرسل

الله سبحانه وتعالى





الإيمان بالله تعالى

توصَّل الإنسان إلى الإيمان بالله، منذ أبعد الأزمان، وعبده وأخلص له، وأحسَّ بارتباط عميق به، قبل أن يصل إلى أي مرحلة من التجريد الفكري الفلسفي، أو الفهم المكتمل لأساليب الإستدلال.

ولم يكن هذا الإيمان وليد تناقض طبقي، أو من صنع مستغلين ظالمين، تكريساً لإستغلالهم، أو مستغَلّين مظلومين تنفيساً لهم، لأن هذا الإيمان سبق في تاريخ البشرية أيّ تناقضات من هذا القبيل.

ولم يكن هذا الإيمان وليد مخاوف وشعور بالرعب اتجاه كوارث الطبيعة وسلوكها المضاد، ولو كان الدين وليد خوف، وحصيلة رعب، لكان أكثر الناس تديناً على مر التاريخ هم أشدهم خوفاً، وأسرعهم هلعاً، مع أن الذين حملوا مشعل الدين على مر الزمن كانوا من أقوى الناس نفساً وأصلبهم عوداً.

بل إن هذا الإيمان يعبر عن نزعة أصيلة في الإنسان إلى التعلق بخالقه، ووجدان راسخ، يدرك بفطرته علاقة الإنسان بربه وكونه.

وفي فترة تالية تفلسف الإنسان، واستخلص من الأشياء التي تحوطه في الكون، مفاهيم عامة ـ كالوجود والعدم، والوجوب والإمكان والإستحالة،

والوحدة والكثرة، والتركب والبساطة، والجزء والكل، والتقدم والتأخر، والعلّة والمعلول ـ فاتجه على الأكثر إلى استخدام هذه المفاهيم، وتطبيقها في مجال الاستدلال، على نحو يدعم ذلك الإيمان الأصيل بالله سبحانه وتعالى، ويفلسفه ويبرره بأساليب البحث الفلسفي.

وحينما بدأت التجربة تبرز على صعيد البحث العلمي كأداة للمعرفة، وأدرك المفكرون أن تلك المفاهيم العامة، لا تكفي بمفردها في مجال الطبيعة، لاكتشاف قوانينها، والتعرف على أسرار الكون، آمنوا بأن الحسّ والملاحظة العلميين، هما المنطلق الأساسي. للبحث عن تلك الأسرار والقوانين.

وكان هذا الاتجاه الحسي في البحث مفيداً على العموم، في تطوير الخبرة البشرية بالكون، وتوسيعها إلى درجة كبيرة.

وقد بدأ هذا الاتجاه مسيرته بالتأكيد، على أن الحس والتجربة أداتان من الأدوات التي ينبغي للعقل وللمعرفة البشرية، أن تستعملهما في سبيل اكتشاف ما يحوط بالإنسان من أسرار الكون ونظامه الشامل، فبدلاً عن أن يجلس مفكر إغريقي، كأرسطو مثلاً في غرفته المغلقة الهادئة، ويفكر في نوع العلاقة بين حركة الجسم في الفضاء من مكان إلى مكان، والقوة المحركة، فيقرر أن الجسم المتحرك يسكن فور انتهاء القوة المحركة، بدلاً عن ذلك يباشر غاليلو تجاربه. ويمارس ملاحظاته على الأجسام المتحركة، ليستنتج علاقة من نوع آخر، تقول:

إن الجسم إذا تعرّض لقوة تحركه فلن يكف عن الحركة حتى إذا انتهت تلك القوة، إلى أن يتعرض إلى قوة توقفه.

وهذا الاتجاه الحسي، يعني تشجيع الباحثين في قضايا الطبيعة، وقوانين الظواهر الكونية، على التوصّل إلى ذلك عن طريق مرحلتين:

أولاهما: مرحلة الحس والتجربة، وتجميع معطياتهما.

والأخرى: مرحلة عقلية، وهي: مرحلة الإستنتاج والتنسيق بين تلك المعطيات، للخروج بتفسير عام مقبول.

ولم يكن الإتجاه الحسي في واقعه العلمي، وممارسات العلماء له، يعني الاستغناء عن العقل. ولم يستطع أي عالم من علماء الطبيعة، أن يكتشف سراً من أسرار الكون، أو قانوناً من قوانين الطبيعة، عن طريق الحس والتجربة إلا بالعقل، إذ كان يجمع في المرحلة الأولى، الملاحظات التي تزوده بها تجاربه وملاحظاته، ثم يوازن في المرحلة الثانية بينها بعقله حتى يصل إلى النتيجة، ولا نعرف فتحاً علمياً استغنى بالمرحلة الأولى عن الثانية، ولم يمر بمرحلتين على هذا النحو، حيث تكون قضايا المرحلة الأولى أموراً محسوسة، وقضايا المرحلة الثانية أموراً مستنتجة ومستدلة، يدركها العقل، ولا تقع تحت الحس المباشر، ففي قانون الجاذبية مثلاً، لم يحس نيوتن بقوة الجذب بين جسمين إحساساً مباشراً، ولم يحس بأنها تتناسب عكسياً مع مربع البعد بين مركزيهما، وطردياً مع حاصل ضرب الكتلتين، وإنما أحس بالحجر وهو يسقط على الأرض إذا هوى، وبالقمر وهو يدور حول الأرض، وبالكواكب وهي تدور حول الشمس، وبدأ يفكر فيها معاً، واستمر في محاولة عامة لتفسيرها جميعاً، مستعيناً بنظريات غاليلو في التعجيل المنتظم للأجسام الساقطة على الأرض، والمتدرجة على السطوح المائلة، ومستفيداً من قوانين كبلر، التي تتحدث عن حركة الكواكب، والتي يقول في أحدها:

إن مربع زمن دوران كل كوكب حول الشمس، يتناسب مع مكعب بعده عنه، وعلى ضوء كل ذلك اكتشف قانون الجاذبية، فافترض قوة جذب بين كل كتلتين، تتناسب وتتأثر بحجم الكتلة ودرجة البعد.

وعلى ضوء كل ذلك اكتشف قانون الجاذبية فافترض قوة جذب بين كل كتلتين تتناسب وتتأثر بحجم الكتلة ودرجة البعد.

وكان بالإمكان لهذا الإتجاه الحسي والتجريبي! في البحث عن نظام الكون، أن يقدّم دعماً جديداً، وباهراً، للإيمان بالله سبحانه وتعالى، بسبب ما يكشفه من ألوان الإتساق، ودلائل الحكمة التي تشير إلى الصانع الحكيم، غير أن العلماء الطبيعيين، بوصفهم علماء طبيعة، لم يكونوا معنيّين بتجلية هذه القضية، التي كانت لا تزال مسألة فلسفية، حسب التصنيف السائد، لمسائل المعرفة البشرية وقضاياها، وسرعان ما نشأت على الصعيد الفلسفي، وخارج نطاق العلم وما يجري فيه، نزعات فلسفية، ومنطقية، حاولت أن تفلسف، أو تمنطق، هذا الاتجاه الحسي.

فأعلنت أن الوسيلة الوحيدة للمعرفة هو الحس، وحيث ينتهي الحس، تنتهي معرفة الإنسان، فكل ما لا يكون محسوساً، ولا يمكن تسليط التجربة عليه، بشكل وآخر، فلا يملك الإنسان وسيلة لإثباته.

وبهذا استخدم الإتجاه الجنسي والتجريبي، لضرب فكرة الإيمان بالله تعالى، فما دام الله سبحانه ليس كائناً محسوساً، بالإمكان رؤيته، والإحساس بوجوده، فلا سبيل إذن إلى إثباته. ولم يكن هذا الاستخدام على يد العلماء، الذين مارسوا الاتجاه التجريبي بنجاح، بل على يد مجموعة من الفلاسفة، ذوي النزعات الفلسفية والمنطقية، التي فسرت هذا الاتجاه الحسي، تفسيراً فلسفياً أو منطقياً خاطئاً.

وقد وقعت هذه النزعات المتطرفة تدريجاً في تناقض:

فمن الناحية الفلسفية، وجدت هذه النزعات نفسها، مضطرة إلى إنكار

الواقع الموضوعي: أي إنكار الكون الذي نعيش فيه جملة وتفصيلاً، لأننا لا نملك سوى الحس، والحس إنما يعرّفنا على الأشياء، كما نحسها ونراها، لا كما هي، فحين نحس بشيء يمكننا أن نؤكد وجوده في إحساسنا، واما وجوده خارج نطاق وعينا، وبصورة مستقلة وموضوعية ومسبقة على الإحساس فلا سبيل إلى إثباته، فحينما ترى القمر في السماء تستطيع أن تؤكد فقط رؤيتك للقمر، وإحساسك به في هذه اللحظة، وأما هل أن القمر موجود في السماء حقاً؟ وهل كان له وجود قبل أن تفتح عينك وتراه؟ فهذا ما وجد أصحاب تلك النزعات أنفسهم، غير قادرين على تأكيده وإثباته تماماً، كالأحول الذي يرى أشياء لا وجود لها، فهو يؤكد رؤيته لتلك الأشياء، ولكنه لا يؤكد وجود تلك الأشياء في الواقع. وبهذا قضت النزعة الحسية الفلسفية في النهاية، على الحس نفسه، كوسيلة للمعرفة، وأصبح هو الحد النهائي لها، بدلاً عن أن يكون وسيلة، وعادت المعرفة الحسية كلها، مجرد ظاهرة، لا وجود لها بصورة مستقلة عن وعينا وإدراكنا.

ومن الناحية المنطقية، اتجهت النزعة الحسية في أحدث تيار من تياراتها إلى الوضعية القائلة:

بأن كل جملة لا يمكن التأكد من
صدق مدلولها أو كذبه بالحس والتجربة،
فهي كلام فراغ من المعنى.

شأنها شأن حروف هجائية، مبعثرة، ترددها على غير هدى، وأما الجملة التي يمكن التأكد من صدق مفادها، وكذبه، فهي كلام له معنى، فإن أكد الحس تطابق مدلولها مع الواقع، فهي جملة صادقة، وإن أكد العكس فهي كاذبة، فإن قلت المطر ينزل من السماء في الشتاء، فهي جملة لها معنى وصادقة في مدلولها، وإن قلت المطر ينزل في الصيف فهي جملة لها معنى، وكاذبة في مدلولها، وإن قلت أن شيئاً لا يمكن أن يرى أو يحس به، ينزل في ليلة القدر فهذه ليس لها معنى، فضلاً عن أنها صادقة أو كاذبة، إذ لا يمكن

التأكد من صدق المدلول وكذبه ، بالحس والتجربة فهي تماماً كما نقول : ديز ينزل في ليلة القدر[1] فكما لا معنى لهذه الجملة كذلك لا معنى لتلك ، وعلى هذا الأساس ، لو قلت الله موجود ، لكان بمثابة أن تقول ديز موجود ، فكما لا معنى لهذه الجملة ، كذلك تلك ، لأن وجود الله تعالى لا يمكن التعرف عليه بالحس والتجربة .

وتواجه هذه النزعة المنطقية تناقضاً أيضاً ، بسبب أن قولها هذا ، وما فيه من تعميم ، هو نفسه شيء لا يمكن التعرف عليه بالحس والمباشرة ، فهو كلام فارغ من المعنى ، بحكم ما يحمل من قرار ، فهذه النزعة المنطقية التي تدعي أن كل جملة لا يتاح للحس والتجربة اختبار مدلولها ، فهي فارغة من المعنى - تصدر بهذا الادعاء تعميماً ، وكل تعميم ، فهو يتجاوز نطاق الحس ، لأن الحس لا يقع إلا على حالات جزئية محدودة .

وهكذا تنتهي هذه النزعة إلى تناقض مع نفسها ، إضافة إلى تناقضها مع كل التعميمات العلمية التي يفسر بها العلماء ظواهر الكون تفسيراً شاملاً ، لأن التعميم - أيّ تعميم - لا يمكن الإحساس به مباشرة ، وإنما يستنتج ويستدل بدلالة ظواهر حسية محددة[2] .

ومن حسن الحظ أن العلم لم يعبأ في مسيرته وتطوره المستمر ، بهذه النزعات ، فكان يمارس عمله الاكتشافي للكون ، دائماً ، مبتدأ بالحس والتجربة ، ومتجاوزاً بعد ذلك الحدود الضيقة ، التي فرضتها تلك النزعات الفلسفية والمنطقية ، ليبذل جهداً عقلياً في تنسيق الظواهر ، ووضعها في أطر قانونية عامة ، والتعرف على ما بينها من روابط وعلاقات .

وقد تضاءل النفوذ الفلسفي والمنطقي لهذه النزعات المتطرفة ، حتى

---

(١) (ديز) كلمة مهملة لا معنى لها ، تقال عادة : كمثال للكلمة الفارغة من المعنى .

(٢) إذا أريد التوسع في استعراض موقف المنطق الوضعي ، ونقده فليراجع كتابنا الأسس المنطقية للإستقراء ص ٤٨٩ .

على صعيد المذاهب الفلسفية المادية، فالفلسفة المادية الحديثة، التي يمثلها بصورة رئيسية المادّيون الجدليون ترفض تلك النزعات بكل وضوح، وتعطي لنفسها الحق في أن تتجاوز نطاق الحس والتجربة، التي يبدأ العالم بها بحثه، وتتجاوز أيضاً المرحلة الثانية التي يختم بها العالم بحثه، وذلك لكي تقارن بين معطيات العلم المختلفة، وتضع لها تفسيراً نظرياً عاماً، وتعين أوجه العلاقات والروابط التي يمكن افتراضها بين تلك المعطيات.

وبهذا فإن المادية الجدلية التي هي الوريث الحديث للفكر المادي، على مر التاريخ، أصبحت بنفسها، غيبية - من وجهة نظر تلك النزعات الحسية المتطرفة - حين خرجت بتفسير شامل للكون ضمن إطار ديالكتيكي.

وهذا يعني أن المادية والإلهية معاً، قد اتفقتا على تجاوز النطاق الحسي، الذي دعت تلك النزعات المادية المتطرفة إلى التقيد به، وأصبح من المعقول أن تتخذ المعرفة مرحلتين: مرحلة لتجميع معطيات الحس والتجربة، ومرحلة لتفسيرها نظرياً وعقلياً. وإنما الخلاف بين المادية والإلهية على نوع التفسير الذي تستنتجه عقلياً، في المرحلة الثانية من معطيات العلم المتنوعة، فالمادية تفترض تفسيراً ينفي وجود صانع حكيم، والإلهية ترى أن تفسير تلك المعطيات لا يمكن أن يكون مقنعاً، ما لم يشتمل على الإقرار بوجود صانع حكيم.

وسنعرض فيما يلي نمطين من الإستدلال على وجود الصانع الحكيم سبحانه، يتمثل في كل منهما معطيات الحس والتجربة من ناحية وتنظيمها عقلياً وإستنتاج أن للكون صانعاً حكيماً من خلال ذلك.

والنمط الأول: نطلق عليه اسم الدليل العلمي، أو الإستقرائي.

والنمط الثاني: نطلق عليه اسم الدليل الفلسفي.

وسنبدأ فيما يلي بالدليل العلمي، ولكن قبل هذا يجب أن نوضح ما نقصده بالدليل العلمي.

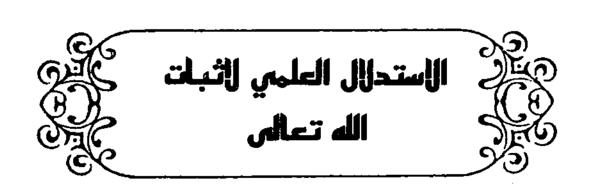
إن الدليل العلمي، هو كل دليل يعتمد على الحس والتجربة، ويتبع منهج الدليل الاستقرائي، القائم على حساب الاحتمالات. وعلى هذا فالمنهج الذي نتبعه في الدليل العلمي، لإثبات الصانع تعالى، هو منهج الدليل الاستقرائي القائم على حساب الاحتمالات[1] ومن أجل ذلك، نعبر عن الدليل العلمي لإثبات الصانع بالدليل الاستقرائي.

وكل هذا ما نوضحه فيما يلي:

---

(١) منهج الدليل، غير الدليل نفسه، فأنت قد تستدل على أن الشمس، أكبر من القمر، بأن العلماء يقولون ذلك، والمنهج هنا هو اتخاذ قرارات العلماء دليلاً على الحقيقة. وقد تستدل على أن فلاناً سيموت بسرعة، بأنك رأيت حلماً، ورأيت في ذلك الحلم أنه مات، والمنهج هنا هو اتخاذ الأحلام دليلاً على الحقيقة، وقد تستدل على أن الأرض مزدوج مغناطيسي كبير، ولها قطبان سالب وموجب، بأن الإبرة المغناطيسية الموضوعة في مستوى أفقي، تتجه دائماً بأحد طرفيها إلى الشمال وبالآخر إلى الجنوب، والمنهج هنا هو اتخاذ التجربة دليلاً.

وصحة كل استدلال، ترتبط ارتباطاً أساسياً، بصحة المنهج الذي يعتمد عليه.



الاستدلال العلمي لإثبات الله تعالى

عرفنا أن الدليل العلمي، لإثبات الصانع تعالى، يتخذ منهج الدليل الاستقرائي، القائم على حساب الاحتمالات. ونريد قبل أن نبدأ باستعراض هذا الدليل، أن نشرح هذا المنهج، وبعد ذلك نقيّمه، لنتعرف على مدى إمكان الوثوق بهذا المنهج، والاعتماد عليه في اكتشاف الحقائق والتعرف على الأشياء.

ومنهج الدليل الإستقرائي القائم على حساب الاحتمالات، له صيغ معقدة، وبدرجة عالية من الدقة، وتقييمه الشامل الدقيق، يتم من خلال دراسة تحليلية كاملة، للأسس المنطقية للاستقراء. ونظرية الاحتمال[1] ونحن نحرص هنا، على تفادي الصعوبات، والابتعاد عن أي صيغ معقدة، أو تحليل عسير الفهم.

ولهذا سنقوم فيما يلي بأمرين:

١ - تحديد المنهج الذي سنتبعه في الإستدلال، وتوضيح خطواته بصورة مبسطة وموجزة.

---

(١) وهذا ما قمنا به في كتاب الأسس المنطقية للاستقراء لاحظ القسم الثالث ص ١٣٣ - ٤١٠.

٢ ـ تقييم هذا المنهج، وتحديد مدى إمكان الوثوق به، لا عن طريق تحليله منطقياً، واكتشاف الأسس المنطقية والرياضية التي يقوم عليها، لأن هذا يضطرنا إلى الدخول في أشياء معقدة، وأفكار على جانب كبير من الدقة، بل نقيم المنهج الذي سنتبعه في الاستدلال على الصانع الحكيم، في ضوء تطبيقاته الأخرى العملية، المعترف بها عموماً لكل إنسان سويّ، فنوضّح أن المنهج الذي يعتمده الدليل على وجود الصانع الحكيم، هو نفس المنهج الذي نعتمده في استدلالاتنا التي نثق بها كل الثقة في حياتنا اليومية الاعتيادية، أو في البحوث العلمية التجريبية على السواء.

إن ما يأتي سيوضح بدرجة كافية، ان منهج الاستدلال على وجود الصانع الحكيم، هو المنهج الذي نستخدمه عادة لإثبات حقائق الحياة اليومية، والحقائق العلمية، فما دمنا نثق به لإثبات هذه الحقائق، فمن الضروري أن نثق به بصورة مماثلة لإثبات الصانع الحكيم، الذي هو أساس تلك الحقائق جميعاً.

فأنت في حياتك الإعتيادية، حين تتسلم رسالة بالبريد، فتتعرف بمجرد قراءتها على أنها مِّن أخيك.

وحين تجد أن طبيباً نجح في علاج حالات مرضية، كثيرة، فتثق به وتتعرف على أنه طبيب حاذق.

وحين تستعمل إبرة بنسلين في عشر حالات مرضية، وتصاب فور استعمالها، في كل مرة بأعراض معينة متشابهة، فتستنتج من ذلك أن في جسمك حساسية خاصة، اتجاه مادة البنسلين.

أنت في كل هذه الاستدلالات وأشباهها، تستعمل في الحقيقة، منهج الدليل الاستقرائي، القائم على حساب الاحتمالات.

والعالم الطبيعي، في بحثه العلمي، حينما لاحظ خصائص معينة، في

المجموعة الشمسية، فيتعرف في ضوئها، على أنها كانت أجزاء من الشمس وانفصلت عنها.

وحينما استدل على وجود (نبتون)، أحد أعضاء هذه المجموعة، واستخلص ذلك من ضبط مسارات حركات الكواكب، قبل أن يكتشف نبتون بالحس.

وحينما استدل في ضوء ظواهر معينة، على وجود الالكترون قبل التوصل إلى المجهر الذري.

إن العالم الطبيعي، في كل هذه الحالات ونظائرها، يستعمل في الحقيقة منهج الدليل الاستقرائي القائم على حساب الاحتمالات.

وهذا المنهج نفسه، هو منهج الدليل الذي نجده فيما يأتي، لإثبات الصانع الحكيم، وهذا ما سنراه بكل ووضح عند استعراض ذلك الدليل.

١ ـ تحديد المنهج وخطواته:

إن منهج الدليل الاستقرائي، القائم على حساب الاحتمالات، يمكن تلخيصه ـ إذا توخّينا البساطة والوضوح ـ في الخطوات الخمس التالية:

أولاً: نواجه في مجال الحس والتجربة، ظواهر عديدة.

ثانياً: ننتقل بعد ملاحظتها وتجميعها، إلى مرحلة تفسيرها، والمطلوب في هذه المرحلة أن نجد فرضية صالحة، لتفسير تلك الظواهر، وتبريرها جميعاً، ونقصد بكونها صالحة لتفسير تلك الظواهر، أنها إذا كانت ثابتة في الواقع، فهي تستبطن أو تتناسب مع وجود جميع تلك الظواهر التي هي موجودة فعلاً.

ثالثاً: نلاحظ أن هذه الفرضية، إذا لم تكن صحيحة وثابتة في الواقع، ففرصة تواجد تلك الظواهر كلها مجتمعة ضئيلة جداً، بمعنى أنه على افتراض عدم صحة الفرضية، تكون نسبة احتمال وجودها جميعاً، إلى احتمال عدمها،

أو عدم واحد منها على الأقل، ضئيلة جداً، كواحد في المائة أو واحد في الألف وهكذا.

رابعاً: نستخلص من ذلك، أن الفرضية صادقة، ويكون دليلنا على صدقها، وجود تلك الظواهر التي أحسسنا بوجودها في الخطوة الأولى.

خامساً: إن درجة إثبات تلك الظواهر، للفرضية المطروحة في الخطوة الثانية، تتناسب عكسياً، مع نسبة احتمال وجود تلك الظواهر جميعاً، إلى احتمال عدمها[1] على افتراض كذب الفرضية، فكلما كانت هذه النسبة أقل، كانت درجة الإثبات أكبر، حتى تبلغ في حالات اعتيادية كثيرة إلى درجة اليقين الكامل بصحة الفرضية[2].

وفي الحقيقة هناك مقاييس وضوابط دقيقة، لقيمة الاحتمال، تقوم على أساس نظرية الاحتمال، وفي الحالات الإعتيادية يطبّق الإنسان بصورة فطرية تلك المقاييس والضوابط تطبيقاً قريباً من الصواب بدرجة كبيرة، ولهذا سنكتفي هنا بالاعتماد، على التقييم الفطري، لقيمة الاحتمال، دون أن ندخل في تفاصيل معقدة، عن الأسس المنطقية والرياضية لهذا التقييم[3].

هذه هي الخطوات التي نتبعها عادة، في كل استدلال استقرائي، يقوم على أساس حساب الاحتمال، سواء في مجال الحياة الاعتيادية، أو على صعيد البحث العلمي، أو في مجال الاستدلال المقبل على الصانع الحكيم سبحانه وتعالى.

---

(١) نقصد باحتمال عدمها، احتمال عدمها، أو عدم واحد منها على الأقل.

(٢) وفقاً للمرحلة الثانية من الدليل الاستقرائي « لاحظ الأسس المنطقية للاستقراء » ص ٣٥٥ ـ ٤١٠.

(٣) من أجل التوسع يمكنك أن تلاحظ الأسس المنطقية للاستقراء ص ١٤٦ ـ ٢٤٧.

٢ ـ تقييم المنهج :

ولنقيم هذا المنهج من خلال التطبيقات والأمثلة ، كما وعدنا سابقاً ، وسنبدأ بالأمثلة من الحياة الاعتيادية أولاً .

قلنا آنفاً ، أنك حين تتسلم رسالة بالبريد وتقرأها ، فتتعرف على أنها من أخيك ـ لا من شخص آخر ممن يرغب في مواصلتك ومراسلتك ـ تمارس بذلك استدلالاً استقرائياً قائماً ، على حساب الاحتمال ، ومهما كانت هذه القضية (وهي ان الرسالة من قبل أخيك) واضحة في نظرك ، فهي في الحقيقة قضية استنتجتها بدليل استقرائي وفقاً للمنهج المتقدم .

فالخطوة الأولى تواجه فيها ظواهر عديدة : من قبيل ان الرسالة تحمل اسماً يتطابق مع اسم أخيك تماماً ، وقد كُتبت فيها الحروف جميعاً ، بنفس الطريقة التي يكتب بها أخوك الألف والباء والجيم والدال والراء إلى آخر الحروف ، وقد نسقت الكلمات والفوارق بينها بنفس الطريقة التي اعتادها أخوك ، وأسلوب التعبير ، ودرجة متانته ، وما يشتمل عليه من نقاط قوة أو ضعف ، يتماثل مع ما تألفه من أساليب التعبير لدى أخيك ، وطريقة الإملاء ، وبعض الأخطاء الإملائية المتواجدة في الرسالة ، هي نفس الطريقة ، ونفس الأخطاء التي اعتادها أخوك في كتابته ، والمعلومات التي تتحدث عنها الرسالة ، هي معلومات يعرفها أخوك عادة ، والرسالة تطلب منك أشياء ، وتعلن عن آراء تتوافق تماماً مع حاجات أخيك ، وآرائه التي تعرفها عنه .

هذه هي الظواهر.

وفي الخطوة الثانية تتساءل : هل الرسالة قد أرسلها أخي إليّ حقاً ، أو أنها من شخص آخر يحمل نفس الإسم؟ وهنا تجد أن لديك فرضية صالحة لتفسير وتبرير كل تلك الظواهر، وهي أن تكون هذه الرسالة من أخيك حقاً ، فإذا كانت من أخيك ، فمن الطبيعي أن تتوافر كل تلك المعطيات التي لاحظتها في المرحلة الأولى .

وفي الخطوة الثالثة، تطرح على نفسك السؤال التالي: إذا لم تكن هذه الرسالة من أخي، بل كانت من شخص آخر، فما هي فرصة أن تتواجد فيها كل تلك المعطيات والخصائص التي لاحظتها في الخطوة الأولى؟ إن هذه الفرصة بحاجة إلى مجموعة كبيرة من الافتراضات، لأننا لكي نحصل على كل تلك المعطيات والخصائص، في هذه الحالة يجب أن نفترض أن شخصاً آخر يحمل نفس الاسم، ويشابه أخاك تماماً، في طريقة رسم كل الحروف من الألف والباء والجيم والدال وغيرها، وتنسيق الكلمات، ويشابهه أيضاً في أسلوب التعبير، وفي مستوى الثقافة اللغوية والإملائية، وفي عدد من المعلومات والحاجات، وفي كثير من الظروف والملابسات. وهذه مجموعة من الصدف يعتبر احتمال وجودها جميعاً ضئيلاً جداً، وكلما ازداد عدد هذه الصدف التي لا بد من افتراضها، تضاءل الاحتمال أكثر فأكثر.

والأسس المنطقية للاستقراء، تعلمنا كيف نقيس الاحتمال؟ وتفسر لنا كيف يتضاءل هذا الاحتمال؟ ولماذا يتضاءل تبعاً لازدياد عدد الصدف التي يفترضها، ولكن ليس من الضروري أن ندخل في تفاصيل ذلك، لأنها معقدة وصعبة الفهم على القارىء الاعتيادي. ومن حسن الحظ أن ضآلة الاحتمال، لا تتوقف على فهم تلك التفاصيل، كما لا يتوقف سقوط الإنسان من أعلى إلى الأرض على فهمه لقوة الجذب وإطلاعه على المعادلة العلمية لقانون الجاذبية. فلست بحاجة إلى شيء، لكي تحس بأن احتمال أن يتواجد شخص يشابه أخاك في كل تلك الظروف والحالات، بعيد جداً وليس البنك بحاجة إلى استيعاب الأسس المنطقية للاستقراء، لكي يعرف أن درجة احتمال أن يسحب كل زبائنه ودائعهم، في وقت واحد ضئيل جداً، بينما احتمال أن يسحب واحد أو إثنان ليس كذلك.

وفي الخطوة الرابعة تقول: ما دام تواجد كل هذه الظواهر في الرسالة أمراً غير محتمل، إلاّ بدرجة ضئيلة جداً، على افتراض أن الرسالة ليست من

أخيك، فمن المرجّح بدرجة كبيرة، بحكم تواجد هذه الظواهر فعلاً، أن تكون الرسالة من أخيك.

وفي الخطوة الخامسة: تربط بين الترجيح الذي قررته في الخطوة الرابعة (ومؤداه أن الرسالة قد أرسلت من أخيك) وبين ضآلة الإحتمال التي قررتها في الخطوة الثالثة وهي ضآلة احتمال أن تتواجد كل تلك الظواهر في الرسالة، بدون أن تكون من أخيك ويعني الربط بين هاتين الخطوتين: أن درجة ذلك الترجيح، تتناسب عكسياً مع ضآلة هذا الاحتمال، فكلما كان هذا الاحتمال أقل درجة، كان ذلك الترجيح، أكبر قيمة وأقوى إقناعاً. وإذا لم تكن هناك قرائن عكسية تنفي أن تكون الرسالة من أخيك، فسوف تنتهي من هذه الخطوات الخمس، إلى القناعة الكاملة بأن الرسالة من أخيك.

هذا مثال من الحياة اليومية لكل إنسان.

ولنأخذ مثالاً آخر للمنهج، من طرائق العلماء في الإستدلال على النظرية العلمية وإثباتها.

وليكن هذا المثال نظرية نشوء الكواكب السيارة ونصها:

إن الكواكب السيارة التسع، أصلها من الشمس، حيث انفصلت عنها كقطع ملتهبة قبل ملايين السنين.

والعلماء يتفقون على العموم في أصل النظرية، ويختلفون في سبب انفصال تلك القطع عن الشمس.

والاستدلال على أصل النظرية التي يتفقون عليها، يتم ضمن الخطوات التالية:

الخطوة الأولى:

لاحظ فيها العلماء عدة ظواهر، أدركوها بوسائل الحس والتجربة.

١ ـ **منها:** إن حركة الأرض حول الشمس، منسجمة مع حركة الشمس حول نفسها، كل منها من غرب لشرق.

٢ ـ **ومنها:** إن دوران الأرض حول نفسها، متوافق مع دوران الشمس حول نفسها، أي من غرب لشرق.

٣ ـ **ومنها:** إن الأرض تدور حول الشمس. في مدار يوازي خط استواء الشمس، بحيث تكون الشمس كقطب، والأرض نقطة واقعة على الرحى.

٤ ـ **ومنها:** إن نفس العناصر التي تتألف منها الأرض، موجودة في الشمس تقريباً.

٥ ـ **ومنها:** إن هناك توافقاً، بين نسب العناصر من ناحية الكم بين الشمس والأرض، فالهيدروجين مثلاً هو العنصر السائد فيهما معاً.

٦ ـ **ومنها:** إن هناك انسجاماً بين سرعة دوران الأرض حول الشمس وحول نفسها وبين سرعة دوران الشمس حول نفسها.

٧ ـ **ومنها:** إن هناك انسجاماً بين عمري الأرض والشمس، حسب تقدير العلم، لعمر كل منهما.

٨ ـ **ومنها:** إن باطن الأرض ساخن، وهذا يثبت أن الأرض في بداية نشوئها، كانت حارّة جداً.

هذه بعض الظواهر التي لاحظها العلماء، في الخطوة الأولى بوسائل الحس والتجربة.

الخطوة الثانية:

وجد العلماء أن هناك فرضية، يمكن أن تفسر بها كل تلك الظواهر التي لوحظت في الخطوة الأولى، بمعنى أنها إذا كانت ثابتة في الواقع فهي تستبطن هذه الظواهر جميعاً وتبررها، وهذه الفرضية هي:

إن الأرض كانت جزءاً من الشـمس،
وانفصلت عنها لسبب من الأسباب، فإنه
على هذا التقدير، يتاح لنا أن نفسر علـى
أساس تلك الظواهر المتقدمة.

أما الظاهرة الأولى:

وهي أن حركة الأرض حول الشمس، منسجمة مع حركة الشمس حول نفسها، لأن كلاً منهما من غرب لشرق فلأن سبب هذا التوافـق في الحـركة يصبح واضحـاً علـى تقـدير صحـة تلك الفـرضية، لأن أي جسـم يدور إذا انفصلت منه قطعة، وبقيت منشدة إليه بخيط أو غيره، فإنها تدور بنفس إتجاه الأصل بمقتضى قانون الإستمرارية.

وأما الظاهرة الثانية:

وهي إن دوران الأرض حول نفسها، متوافق مع دوران الشمس حول نفسها، أي من غرب لشرق فالفرضية المذكورة، تكفي لتفسيرها أيضاً، لأن الجسم المنفصل من جسم يدور من غرب لشرق، يأخذ نفس حركته بمقتضى قانون الاستمرارية.

وكذلك الأمر في الظاهرة الثالثة أيضاً.

وأما الظاهرة الرابعة والخامسة:

اللتان تعبران عن توافق الأرض والشمس، في العناصر وفي نسبهـا، فهما مفهومتان بوضوح، على أساس أن الأرض جزء من الشمس، لأن عناصر الجزء نفس عناصر الكل.

وأما الظاهرة السادسة:

وهـي الانسجـام بين سرعـة دوران الأرض حول الشـمس، وحـول نفسها، وبين سرعة دوران الشمس حول نفسها فقد عرفنا إن فرضية انفصال

الأرض من الشمس، تعني إن حركتي الأرض ناشئتان من حركة الشمس، وهذا يفسر لنا الإنسجام المذكور ويحدد سببه.

وأما الظاهرة السابعة:

وهي الإنسجام بين عمري الأرض والشمس، فمن الواضح تفسيرها على أساس نظرية الإنفصال، وكذلك الأمر في الظاهرة الثامنة، التي يبدو منها أن الأرض في بداية نشوئها كانت حارة جداً، فإن فرضية انفصالها عن الشمس تستبطن ذلك.

الخطوة الثالثة:

يلاحظ أنه على إفتراض أن نظرية إنفصال الأرض عن الشمس ليست صحيحة، فمن البعيد أن تتواجد كل تلك الظواهر وتتجمع، لأنها تكون مجموعة من الصدف التي ليس بينها ترابط مفهوم، فاحتمال تواجدها جميعاً على تقدير عدم صحة النظرية المذكورة ضئيل جداً، لأن هذا الإحتمال يتطلب منا مجموعة كبيرة، من الافتراضات لكي نفسر تلك الظواهر جميعاً.

فبالنسبة إلى انسجام حركة الأرض حول الشمس، مع حركة الشمس حول نفسها، في إنها من غرب لشرق، لابد أن نفترض إن الأرض كانت جرماً بعيداً عن الشمس، سواء خلقت وحدها، أو كانت جزءاً من شمس أخرى أنفصلت عنها، ثم اقتربت من الشمس، ونفترض أيضاً أن الأرض المنطلقة حينما دخلت في مدارها حول الشمس، دخلت في نقطة تقع في غرب الشمس، فتدور حينئذ من غرب لشرق، أي مع إتجاه حركة الشمس حول نفسها، إذ لو كانت قد دخلت في مدار الشمس، في نقطة تقع في شرق الشمس، لكانت تدور من شرق لغرب.

وبالنسبة إلى التوافق بين حركة الأرض حول نفسها، ودوران الشمس حول نفسها، في الإتجاه من غرب لشرق، نفترض مثلاً إن الشمس الأخرى التي انفصلت عنها الأرض إفتراضاً، كانت تدور من غرب لشرق.

وبالنسبة إلى دوران الأرض حول الشمس في مدار يوازي خط استواء الشمس، نفترض مثلاً إن الشمس الأخرى التي انفصلت عنها الأرض، كانت واقعة في نقطة عمودية على خط الاستواء للشمس.

وبالنسبة إلى توافق الأرض والشمس في العناصر، وفي نسبها، لابد أن نفترض إن الأرض أو الشمس الأخرى التي انفصلت عنها الأرض، قد كانت تشتمل على نفس عناصر هذه الشمس وبنسب متشابهة.

وبالنسبة إلى الإنسجام بين سرعة دوران الأرض، حول الشمس وحول نفسها، وبين سرعة دوران الشمس حول نفسها، فنفترض مثلاً إن الشمس الأخرى التي انفصلت عنها الأرض، انفجرت بنحو أعطت للأرض المنفصلة نفس السرعة التي تتناسب مع حركة شمسنا.

وبالنسبة إلى الإنسجام بين عمري الأرض والشمس وحرارة الأرض في بداية نشوئها، نفترض مثلاً إن الأرض كانت قد انفصلت من شمس أخرى، لها نفس عمر شمسنا، وإنها انفصلت على نحو أدّى إلى حرارتها بدرجة كبيرة جداً.

وهكذا نلاحظ إن تواجد جميع تلك الظواهر، على تقدير عدم صحة فرضية الإنفصال؛ يحتاج إلى إفتراض مجموعة من الصدف، التي يعتبر إحتمال وجودها جميعاً ضئيلاً جداً، بينما فرضية الإنفصال وحدها كافية لتفسير كل تلك الظواهر والربط بينها.

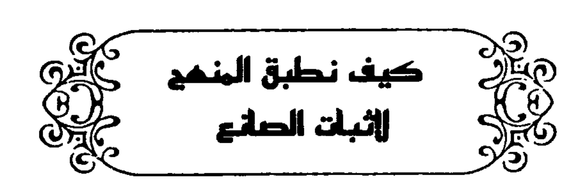
وفي الخطوة الرابعة:

نقول ما دام تواجد كل هذه الظواهر الملحوظة في الأرض امراً غير محتمل، إلاّ بدرجة ضئيلة جداً، على إفتراض أن الأرض ليست منفصلة عن هذه الشمس فمن المرجح بدرجة كبيرة بحكم تواجد هذه الظواهر فعلاً، أن تكون الأرض منفصلة عن الشمس.

وفي الخطوة الخامسة:

نربط بين ترجيح فرضية إنفصال الأرض عن هذه الشمس، كما تقرر في الخطوة الرابعة وبين ضآلة إحتمال أن تتواجد كل تلك الظواهر في الأرض، بدون أن تكون منفصلة عن هذه الشمس، كما تقرر في الخطوة الثالثة. ويعني الربط بين هاتين الخطوتين، إنه كلما كانت ضآلة الإحتمال الموضحة في الخطوة الثالثة أشد، كان الترجيح الموضح في الخطوة الرابعة أكبر.

وعلى هذا الأساس نستدل على نظرية إنفصال الأرض والشمس، وبهذا المنهج حصل العلماء على قناعة كاملة بذلك.



كيف نطبق المنهج لإثبات الصانع

بعد أن عرفنا المنهج العام للدليل الإستقرائي القائم على حساب الإحتمالات وبعد أن قيمنا هذا المنهج من خلال تطبيقاته المتقدمة، نمارس تطبيقه الآن على الإستدلال، لإثبات الصانع الحكيم، وذلك بإتباع نفس الخطوات السابقة.

الخطوة الأولى:

نلاحظ توافقاً مطرداً، بين عدد كبير وهائل من الظواهر المنتظمة، وبين حاجة الإنسان ككائن حي، وتيسير الحياة له، على نحو نجد أن أي بديل لظاهرة من تلك الظواهر، يعني انطفاء حياة الإنسان على الأرض أو شلّها.

وفيما يلي نذكر عدداً من تلك الظواهر كأمثلة:

تتلقى الأرض من الشمس، كمية من الحرارة، تمدها بالدفء الكافي، لنشوء الحياة، وإشباع حاجة الكائن الحي إلى الحرارة لا أكثر ولا أقل. وقد لوحظ علمياً أن المسافة التي تفصل بين الأرض والشمس، تتوافق توافقاً كاملاً مع كمية الحرارة المطلوبة من أجل الحياة على هذه الأرض، فلو كانت ضعف ما عليها الآن، لما وجدت حرارة بالشكل الذي يتيح الحياة، ولو كانت نصف ما عليها الآن، لتضاعفت الحرارة إلى الدرجة التي لا تطيقها حياة.

ونلاحظ أن قشرة الأرض والمحيطات تحتجز، ـ على شكل مركبات ـ الجزء الاعظم من الأوكسجين، حتى أنه يكون ثمانية من عشرة من جميع المياه في العالم، وعلى الرغم من ذلك، ومن شدة تجاوب الأوكسجين من الناحية الكيماوية، للإندماج على هذا النحو، فقد ظل جزء منه طليقاً، يساهم في تكوين الهواء، وهذا الجزء يحقق شرطاً ضرورياً من شروط الحياة، لأن الكائنات الحية من إنسان وحيوان، بحاجة ضرورية إلى أوكسجين لكي تتنفس ولو قدر له أن يحتجز كله ضمن مركبات، لما أمكن للحياة أن توجد.

وقد لوحظ أن نسبة ما هو طليق من هذا العنصر تتطابق تماماً مع حاجة الإنسان وتيسير حياته العملية، فالهواء يشتمل على ٢١٪ من الأوكسجين، ولو كان يشتمل على نسبة كبيرة، لتعرضت البيئة إلى حرائق شاملة بإستمرار، ولو كان يشتمل على سبة صغيرة، لتعذرت الحياة أو أصبحت صعبة، ولما توفرت النار بالدرجة الكافية لتيسير مهماتها.

ونلاحظ ظاهرة طبيعية، تتكرر بإستمرار، ملايين المرات على مر الزمن تنتج الحفاظ على قدر معين من الأوكسجين باستمرار، وهي أن الإنسان ـ والحيوان عموماً ـ حينما يتنفس الهواء، ويستنشق الأوكسجين، يتلقاه الدم، ويوزع في جميع أرجاء الجسم ويباشر هذا الأوكسجين في حرق الطعام وبهذا يتولد ثاني أوكسيد الكربون، الذي يتسلل إلى الرئتين، ثم يلفظه الإنسان وبهذا ينتج الإنسان وغيره من الحيوانات هذا الغاز باستمرار، وهذا الغاز بنفسه، شرط ضروري لحياة كل نبات، والنبات بدوره حين يستمد ثاني أوكسيد الكربون، يفصل الأوكسجين منه، ويلفظه ليعود نقياً صالحاً للإستنشاق من جديد، وبهذا التبادل بين الحيوان والنبات، أمكن الإحتفاظ بكمية من الأوكسجين، ولولا ذلك، لتعذر هذا العنصر، وتعذرت الحياة على الإنسان نهائياً. إن هذا التبادل، نتيجة آلاف من الظواهر الطبيعية، التي

تجمعت، حتى انتجت هذه الظاهرة، التي تتوافق بصورة كاملة، مع متطلبات الحياة.

ونلاحظ أن النتروجين بوصفه غازاً ثقيلاً، أقرب إلى الجمود، يقوم عند إنضمامه إلى الأوكسجين في الهواء، بتخفيفه بالصورة المطلوبة للاستفادة منه، ويلاحظ هنا إن كمية الأوكسجين التي ظلت طليقة في الفضاء، وكمية النتروجين التي ظلت كذلك، منسجمتان تماماً، بمعنى أن الكمية الأولى هي التي يمكن للكمية الثانية أن تخففها، فلو زاد الأوكسجين، أو قل النتروجين، لما تمت عملية التخفيف المطلوبة.

ونلاحظ أن الهواء كمية محدودة في الأرض، قد لا يزيد على جزءٍ من مليون من كتلة الكرة الأرضية، وهذه الكمية بالضبط، تتوافق مع تيسير الحياة للإنسان على الأرض. فلو زادت نسبة الهواء على ذلك، أو قلت لتعذرت الحياة أو تعسرت، فإن زيادتها تعني إزدياد ضغط الهواء على الإنسان، الذي قد يصل إلى ما لا يطاق، وقلتها تعني فسح المجال للشهب التي تتراءى في كل يوم، لإهلاك من على الأرض واختراقها بسهولة.

ونلاحظ أن قشرة الأرض، التي كانت تمتص ثاني أوكسيد الكربون والأوكسجين، محددة على نحو لا يتيح لها أن تمتص كل هذا الغاز ولو كانت أكثر سمكاً لامتصته ولهلك النبات والحيوان والإنسان.

ونلاحظ أن القمر، يبعد عن الأرض مسافة محدودة، وهي تتوافق تماماً، مع تيسير الحياة العملية للإنسان على الأرض، ولو كان يبعد عنا مسافة قصيرة نسبياً، لتضاعف المد الذي يحدثه، وأصبح من القوة على نحو يزيح الجبال من مواضعها.

ونلاحظ وجود غرائز كثيرة في الكائنات الحية المتنوعة، ولئن كانت الغريزة مفهوماً غيبياً، لا يقبل الملاحظة والإحساس المباشر، فما تعبر عنه تلك الغرائز من سلوك ليس غيبياً، بل يعتبر ظاهرة قابلة للملاحظة العلمية

تماماً. وهذا السلوك الغريزي، في آلاف الغرائز. التي تعرّف عليها الإنسان في حياته الإعتيادية، أو في بحوثه العلمية ، يتوافق باستمرار، مع تيسير الحياة وحمايتها. وإنه يبلغ إحياناً إلى درجة كبيرة من التعقيد والاتقان، وحينما نقسم ذلك السلوك إلى وحدات، نجد أن كل وحدة قد وضعت في الموضع المنسجم تماماً مع مهمة تيسير الحياة وحمايتها.

والتركيب الفسلجي للإنسان، يمثل ملايين من الظواهر الطبيعية والفسلجية وكل ظاهرة في تكوينها ودورها الفسيولوجي وترابطها مع سائر الظواهر، تتوافق باستمرار مع مهمة تيسير الحياة وحمايتها، فمثلاً نأخذ مجموعة الظواهر التي ترابطت على نحو يتوافق تماماً مع مهمة الأبصار، وتيسير الإحساس بالأشياء بالصورة المفيدة. أن عدسة العين تلقي صوراً على الشبكية، التي تتكون من تسع طبقات، وتحتوي الطبقة الأخيرة منها على ملايين الأعواد والمخروطات قد رتبت جميعاً في تسلسل يتوافق مع إداء مهمة الإبصار من حيث علاقات بعضها بالبعض الآخر، وعلاقاتها جميعاً بالعدسة، إذا اسثنينا شيئاً واحداً وهو الصورة تنعكس عليها مقلوبة، غير أنه استثناء موقت فإن الإبصار لم يربط بهذه المرحلة، لكي نحس بالأشياء وهي مقلوبة، بل أعيد تنظيم الصورة في ملايين أخرى، من خويطات الأعصاب، المؤدية إلى المخ حتى أخذت وضعها الطبيعي، وعند ذلك فقط تتم عملية الإبصار، وتكون عندئذ متوافقة بصورة كاملة مع تيسير الحياة.

حتى الجمال والعطر والبهاء، كظواهر طبيعية نجد إنها تتواجد في المواطن التي يتوافق تواجدها فيها، مع مهمة تيسير الحياة ، ويؤدي دوراً في ذلك، فالأزهار التي ترك تلقيحها للحشرات ، لوحظ أنها قد زودت بعناصر الجمال والجذب، من اللون الزاهي والعطر المغري، بنحو يتفق مع جذب الحشرة إلى الزهرة، وتيسير عملية التلقيح، بينما لا تتميز الأزهار التي يحمل الهواء لقاحها عادة، بعناصر الإغراء.

وظاهرة الزوجية على العموم ، والتطابق الكامل بين التركيب الفسلجي

للذكر، والتركيب الفسلجي لأنثاه في الإنسان، وأقسام الحيوان والنبات على النحو الذي يضمن التفاعل، وإستمرار الحياة مظهر كوني آخر للتوافق بين الطبيعة ومهمة تيسير الحياة.

﴿وإنْ تَعُدّوا نِعْمَةَ اللّهِ لا تُحْصُوهَا. إنّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَحِيْمٌ﴾.
(النحل ١٨)

هذه هي الخطوة الأولى.

الخطوة الثانية:

نجد أن هذا التوافق المستمر، بين الظاهرة الطبيعية، ومهمة ضمان الحياة، وتيسيرها في ملايين الحالات، يمكن أن يفسر في جميع هذه المواقع، بفرضية واحدة وهي: أن نفترض صانعاً حكيماً لهذا الكون، قد استهدف أن يوفر في هذه الأرض، عناصر الحياة وسير مهمتها، فإن هذه الفرضية، تستبطن كل هذه التوافقات.

الخطوة الثالثة:

نتسائل إذا لم تكن فرضية الصانع الحكيم ثابتة في الواقع، فما هو مدى إحتمال أن تتواجد كل تلك التوافقات، بين الظواهر الطبيعية ومهمة تيسير الحياة دون أن يكون هناك هدف مقصود؟ من الواضح أن إحتمال ذلك يعني إفتراض مجموعة هائلة من الصدف، وإذا كان إحتمال أن تكون الرسالة المبردة إليك، في مثال سابق من شخص آخر غير أخيك، ولكنه يشابهه في كل الصفات بعيداً جداً، لأن إفتراض المشابهة في ألف صفة ضئيل، بدرجة كبيرة في حساب الإحتمالات، فما ظنك بإحتمال أن تكون هذه الأرض التي نعيش عليها، بكل ما تضمه، من صنع مادة غير هادفة، ولكنها تشابه الفاعل الهادف الحكيم، في ملايين ملايين الصفات؟.

الخطوة الرابعة :

نرجح بدرجة لا يشوبها الشك، أن تكون الفرضية التي طرـ الخطوة الثانية صحيحة أي أن هناك صانعاً حكيماً.

الخطوة الخامسة:

نربط بين هذا الترجيح، وبين ضآلة الإحتمال التي قررناها في الخطوة الثالثة. ولما كان الإحتمال في الخطوة الثالثة، يزداد ضآلة، كلما ازداد عدد الصدف، التي لابد من افتراضها فيه، كما عرفنا سابقاً، فمن الطبيعي أن يكون هذا الإحتمال ضئيلاً، بدرجة لا تماثلها إحتمالات الخطوة الثالثة في الإستدلال على أي قانون علمي، لأن عدد الصدف التي لابد من افتراضها في إحتمال الخطوة الثالثة هنا، أكثر من عددها في أي إحتمال مناظر، وكل إحتمال من هذا القبيل، فمن الضروري أن يزول[1].

---

(١) بقيت مشكلتان لا بد من تذليلهما:

إحداهما: إنه قد يلاحظ أن البديل المحتمل لفرضية الصانع الحكيم، تبعاً لمنهج الدليل الاستقرائي، هو أن تكون كل ظاهرة من الظواهر المتوافقة، مع مهمة تيسير الحياة، ناتجة عن ضرورة عمياء في المادة، بأن تكون المادة بطبيعتها، وبحكم تناقضاتها الداخلية، وفاعليتها الذاتية، هي السبب فيما يحدث لها من تلك الظواهر، والمقصود من الدليل الاستقرائي تفضيل فرضية الصانع الحكيم، على البديل المحتمل، لأن تلك لا تستبطن إلا إفتراضاً واحداً وهو افتراض الذات الحكيمة، بينما البديل يفترض ضرورات عمياء في المادة، بعدد الظواهر موضوعة البحث، فيكون إحتمال البديل، احتمالاً لعدد كبير من الوقائع والصدف، فيتضاءل حتى يفنى، غير أن هذا إنما يتم، إذا لم تكن فرضية الصانع الحكيم مستبطنة لعدد كبير من الوقائع والصدف أيضاً، مع أنه قد يبدو أنها مستبطنة لذلك، لأن الصانع الحكيم الذي يفسر كل تلك الظواهر في الكون يجب ان نفترض فيه علوماً وقدرات بعدد تلك الظواهر، وبهذا كان العدد الذي تستبطنه هذه الفرضية، من هذه العلوم والقدرات، بقدر ما يستبطنه البديل من افتراض ضرورات عمياء فأين التفضيل؟

= الجواب: إن التفضيل ينشأ من هذه الضرورات العمياء غير مترابطة بمعنى أن افتراض أي واحدة منها يعتبر حيادياً، تجاه افتراض الضرورة الأخرى وعدمها، وهذا يعني في لغة حساب الاحتمال، أنها حوادث مستقلة، وان احتمالاتها مستقلة، وأما العلوم والقدرات التي يتطلبها افتراض الصانع الحكيم للظواهر، موضوعة البحث، فهي ليست مستقلة لأن ما يتطلبه صنع بعض الظواهر من علم وقدرة، هو نفس ما يتطلبه صنع بعض آخر من علم وقدرة، فافتراض بعض تلك العلوم والقدرات، ليس حيادياً، تجاه افتراض الآخر، بل يستبطنه، أو يرجحه بدرجة كبيرة، وهذا يعني بلغة حساب الاحتمال ان احتمالات هذه المجموعة من العلوم والقدرات، مشروطة، أي ان احتمال بعضها على تقدير افتراض بعضها الآخر، كبيراً جداً وكثيراً ما يكون يقيناً.

ـ وحينما نريد أن نقيم احتمال مجموعة هذه العلوم والقدرات، واحتمال مجموعة تلك الضرورات، ونوازن بين قيمتي الاحتمالين، يجب ان نتبع قاعدة ضرب الاحتمال المقررة في حساب الاحتمال، بأن نضرب قيمة احتمال كل عضو في المجموعة، بقيمة احتمال عضو آخر فيها، وهكذا، والضرب كما نعلم، يؤدي إلى تضاءل الاحتمال، وكلما كانت عوامل الضرب اقل عدداً، كان التضاءل أقل، وقاعدة الضرب في الاحتمالات المشروطة والإحتمالات المستقلة تبرهن رياضياً على أن في الاحتمالات المشروطة، يجب أن نضرب قيمة احتمال عضو، بقيمة احتمال عضو آخر، على افتراض وجود العضو الأول، وهو كثيراً ما يكون يقيناً أو قريباً من اليقين، فلا يؤدي الضرب إلى تقليل الاحتمال اطلاقاً، أو إلى تقليله بدرجة ضئيلة جداً، خلافاً للاحتمالات المستقلة، التي يكون كل واحد منها حيادياً تجاه الاحتمال الآخر، فإن الضرب هناك يؤدي إلى تناقض القيمة بصورة هائلة، ومن هنا ينشأ تفضيل احد الافتراضين على الآخر (من أجل توضيح قاعدة الضرب في الاحتمالات المشروطة والمستقلة راجع كتاب الأسس المنطقية للاستقراء ص ١٥٣ - ١٥٤).

والمشكلة الأخرى: هي المشكلة التي تنجم عن تحديد قيمة الاحتمال القبلي، للقضية المستدلة استقرائياً، ولتوضيح ذلك يقارن بين تطبيق الدليل الاستقرائي لاثبات الصانع وتطبيقه في المثال السابق لإثبات أن الرسالة التي تسلمها بالبريد هي من أخيك ويقال بصدد هذه المقارنة، ان سرعة اعتقاد الإنسان في =

وهكذا نصل إلى النتيجة القاطعة ، وهي أن للكون صانعاً حكيماً، بدلالة كل ما في هذا الكون من آيات الإتساق والتدبير.

﴿سَنُرِيهِم آيَاتِنَا في الآفَاقِ وَفي أَنْفُسِهِم حَتّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أنَّـهُ الحَقّ أوَ لَم يَكْفِ بِرَبِكَ أنّهُ عَلى كُلّ شَيءٍ شَهِيْدٌ﴾ . [فصلت ٥٣] .

﴿إنَّ في خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وإخْتِلافِ اللّيْلِ وَالنّهارِ وَالفُلكِ الّتي تَجري في البَحرِ بِمَا يَنْفَعُ النّاسَ وَمَا أنزَلَ اللَّهُ مِنَ السّماءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرضَ بَعدَ مَوتِهَا وَبَثَّ فيهَا مِن كُلّ دَابَّةٍ وتَصريفِ الرّياح وَالسّحَابِ المسَخّرِ بَيْنَ السّمَاءِ والأرضِ لآيَاتٍ لِقَومٍ يَعقِلونَ﴾ (البقرة ١٦٤) .

= هذا المثال بأن الرسالة قد أرسلها أخوه، تتأثر بدرجة احتمال هذه القضية، قبل أن يفض الرسالة ويقرأها ـ وهو ما نسميه بالاحتمال القبلي للقضية ـ فإذا كان قبل ان يفتح الرسالة، يحتمل بدرجة خمسين في المائة مثلاً، ان أخاه يبعث إليه برسالة، فسوف يكون اعتقاده بأن الرسالة من أخيه وفق الخطوات الخمس للدليل الاستقرائي سريعاً، بينما إذا كان مسبقاً، لا يحتمل ان يتلقى رسالة من أخيه بدرجة معتد بها، إذ يغلب على ظنه مثلاً بدرجة عالية من الاحتمال انه قد مات فلن يسرع إلى الاعتقاد بأن الرسالة من أخيه، ما لم يحصل على قرائن مؤكدة، فما هو السبيل في مجال اثبات الصانع لقياس الاحتمال القبلي للقضية؟ والحقيقة ان قضية الصانع الحكيم، سبحانه، ليست محتملة، وإنما هي مؤكدة بحكم الفطرة والوجدان، ولكن لو افترضنا انها قضية محتملة، نريد اثباتها بالدليل الاستقرائي فيمكن أن نقدر قيمة الاحتمال القبلي بالطريقة التالية:
نأخذ كل ظاهرة من الظواهر، موضوعة البحث بصورة مستقلة، فنجد أن هناك افتراضين، يمكن ان نفسرها بأي واحد منهما: احدهما افتراض صانع حكيم، والآخر افتراض ضرورة عمياء في المادة، وما دمنا أمام افتراضين، ولا نملك أي مبرر مسبق لترجيح احدهما على الآخر، فيجب ان نقسم رقم اليقين عليهما بالتساوي، فتكون كل واحد منهما خمسين في المائة، ولما كانت الاحتمالات التي في صالح فرضية الصانع الحكيم مترابطة ومشروطة، والاحتمالات التي في صالح فرضية الضرورة العمياء مستقلة وغير مشروطة، فالضرب يؤدي =

﴿فَارْجعِ البَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورِ ثُمَّ أرجعِ البَصرَ كَرَّتَينَ يَنْقَلِبْ إليكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسيرٌ﴾ (الملك ٥).

= باستمرار إلى تضاءل شديد، في احتمال فرضية الضرورة العمياء، وتصاعد مستمر في احتمال فرضية الصانع الحكيم.

والذي لاحظته بعد تتبع وجهد، ان السبب الذي جعل الدليل الاستقرائي العلمي لاثبات الصانع تعالى لا يلقى قبولاً عاماً على صعيد الفكر الأوروبي وينكره فلاسفة من أمثال رسل، هو عدم قدرة هؤلاء المفكرين على التغلب على هاتين النقطتين اللتين، اشرنا هنا إلى الطريقة، التي يتم التغلب بها عليهما.

ومن أجل التوسع والتعمق في كيفية تطبيق مناهج الدليل الاستقرائي لاثبات الصانع مع التغلب على هاتين النقطتين، يمكن أن يراجع كتاب الأسس المنطقية للاستقراء ص ٤٤١ ـ ٤٥١.



الدليل الفلسفي

قبل أن ندخل في الحديث عن الدليل الفلسفي على إثبات الصانع سبحانه وتعالى يجب أن نتساءل ما هو الدليل الفلسفي وما الفرق بينه وبين الدليل العلمي وما هي أقسام الدليل؟

إن الدليل ينقسم إلى ثلاثة أقسام وهي الدليل الرياضي والدليل العلمي والدليل الفلسفي.

فالدليل الرياضي هو الدليل الذي يستعمل في مجال الرياضيات البحتة والمنطق الصوري (الشكلي) ويقوم هذا الدليل دائماً على مبدأ أساسي وهو مبدأ عدم التناقض القائل: أن (أ) هي (أ) ولا يمكن أن لا تكون (أ)، فكل دليل يستند إلى هذا المبدأ وما يتفرع عنه من نتائج فقط نطلق عليه أسم الدليل الرياضي وهو يحظى بثقة من الجميع.

والدليل العلمي هو الدليل الذي استعمل في مجال العلوم الطبيعية، ويعتمد على المعلومات التي يمكن إثباتها بالحس أو الاستقراء العلمي إضافة إلى مبادىء الدليل الرياضي.

والدليل الفلسفي هو الدليل الذي يعتمد لإثبات واقع موضوعي في العالم الخارجي على معلومات عقلية(المعلومات العقلية هي المعلومات التي

لا تحتاج إلى إحساس وتجربة) إضافة إلى مبادىء الدليل الرياضي.

وهذا لا يعني بالضرورة أن الدليل الفلسفي لا يعتمد على معلومات حسية أو استقرائية. وإنما يعني أنه لا يكتفي بها بل يعتمد إلى جانب هذا أو بصورة مستقلة عن ذلك على معلومات عقلية أخرى في إطار الاستدلال على القضية التي يريد إثباتها.

فالدليل الفلسفي إذن يختلف عن الدليل العلمي في تعامله مع معلومات عقلية لا تدخل في نطاق مبادىء الدليل الرياضي.

وعلى أساس ما قدمناه من مفهوم الدليل الفلسفي قد نواجه السؤال التالي: هل بالإمكان الاعتماد على المعلومات العقلية أي على الأفكار التي يوحي بها العقل بدون حاجة إلى إحساس وتجربة أو استقراء علمي؟

والجواب على ذلك بالإيجاب، فإن هناك في معلومتنا ما يحظى بثقة الجميع كمبدأ عدم التناقض الذي تقوم عليه كل الرياضيات البحتة، وهو مبدأ يقوم إيماننا به على أساس عقلي وليس على أساس الشواهد والتجارب في مجال الاستقراء.

والدليل على ذلك أن درجة إعتقادنا بهذا المبدأ لا تتأثر بعدد التجارب والشواهد التي تتطابق معها. ولنأخذ تطبيقاً حسابياً واضحاً لهذا المبدأ وهو التطبيق القائل: ٢ + ٢ = ٤ فإن إعتقادنا بصحة هذه المعادلة الحسابية البسيطة إعتقاد راسخ لا يزداد بملاحظة الشواهد، بل إننا لسنا مستعدين للاستماع إلى أي شاهد عكسي ولن نصدق لو قيل لنا أن اثنين زائداً اثنين يساوي في حالة فريدة خمسة أو ثلاثة، وهذا يعني أن إعتقادنا بتلك الحقيقة ليس مرتبطاً بالإحساس والتجربة وإلا لتأثر بهما إيجاباً وسلباً.

فإذا كنا نثق كل الثقة باعتقادنا بهذه الحقيقة على الرغم من عدم ارتباطه بالإحساس والتجربة فمن الطبيعي أن نسلم أن بالإمكان أن نثق أحياناً بالمعلومات العقلية التي يعتمد عليها الدليل الفلسفي.

وبكلمة أخرى: إن رفض الدليل الفلسفي لمجرد أنه يعتمد على معلومات عقلية لا ترتبط بالتجربة والاستقراء يعني رفض الدليل الرياضي أيضاً لأنه يعتمد على مبدأ عدم التناقض الذي لا يرتبط اعتقادنا فيه بالتجربة والاستقراء[1].

نموذج من الدليل الفلسفي على إثبات الصانع

يعتمد هذا الدليل على القضايا الثلاث التالية:

أولاً: على البديهية القائلة: أن كل حادثة لها سبب تستمد منه وجودها.

وهذه قضية يدركها الإنسان بشعوره الفطري ويؤكدها الاستقراء العلمي باستمرار.

ثانياً: على القضية القائلة: كلما وجدت درجات متفاوتة من شيء ما بعضها أقوى وأكمل من بعض فليس بالإمكان أن تكون الدرجة الأقل كمالاً والأدنى محتوًى هي السبب في وجود الدرجة الأعلى، فالحرارة لها درجات والمعرفة لها درجات والنور له درجات بعضها أشد وأكمل من بعض فلا يمكن أن تنبثق درجة أعلى من الحرارة عن درجة أدنى منها ولا يمكن أن يكتسب الإنسان معرفة كاملة باللغة الانجليزية من شخص لا يعرف منها إلا قدراً محدوداً أو يجهلها تماماً ولا يمكن لدرجة نور ضئيلة أن تحقق درجة أكبر من النور، لأن كل درجة أعلى تمثل زيادة نوعية وكيفية على الدرجة الأدنى منها وهذه الزيادة النوعية لا يمكن أن يمنحها من لا يملكها فأنت حينما تريد أن تمول مشروعاً من مالك لا يمكنك أن تمده بدرجة أكبر من رصيدك الذي تملكه.

---

(١) من أجل التوسع في ذلك، والتعمق في إثباته، واستيعاب مواقف المنطق التجريبي، والمنطق الوضعي من هذه النقطة، ومناقشتها، يمكن الرجوع إلى كتاب الأسس المنطقية للاستقراء ص ٤٨٠ ـ ٥٠٠.

ثالثاً: إن المادة في تطورها المستمر تتخذ أشكالاً مختلفة في درجة تطورها ومدى التركيز فيها، فالجزيء من الماء الذي لا حياة فيه ولا إحساس يمثل شكلاً من أشكال الوجود للمادة، ونطفة الحياة التي تساهم في تكوينة النبات والحيوان (البروتوبلازم) تمثل شكلاً أرفع لوجود المادة، و (الاميبا) التي تعتبر حيواناً مجهرياً ذا خلية واحدة تمثل شكلاً من وجود المادة أكثر تطوراً، والإنسان هذا الكائن الحي الحساس المفكر يعتبر الشكل الأعلى من أشكال الوجود في هذا الكون.

وحول هذه الأشكال المختلفة من الوجود يبرز السؤال التالي: هل الفارق بين هذه الأشكال مجرد فارق كمي في عدد الجزئيات والعناصر وفي العلاقات الميكانيكية بينها أو هو فارق نوعي وكيفي يعبر عن درجات متفاوته من الوجود ومراحل من التطور والتكامل؟ وبكلمة أخرى: هل الفارق بين التراب والإنسان الذي تكون منه عددي فقط أو هو الفارق بين درجتين من الوجود ومرحلتين من التطور والتكامل كالفارق بين الضوء الضعيف والضوء الشديد؟.

وقد آمن الإنسان بفطرته منذ طرح على نفسه هذا السؤال بأن هذه الأشكال درجات من الوجود ومراحل من التكامل فالحياة درجة أعلى من الوجود للمادة، وهذه الدرجة نفسها ليست حدية وإنما هي أيضاً درجات وكلما اكتسبت الحياة مضموناً جديداً عبرت عن درجة أكبر، ومن هنا كانت حياة الكائن الحساس المفكر أغنى وأكبر درجة من حياة النبات وهكذا.

غير أن الفكر المادي قبل أكثر من قرن من الزمن خالف في ذلك إيماناً منه بوجهة النظر الميكانيكية في تفسير الكون القائلة: بأن العالم الخارجي يتكون من جسيمات صغيرة متماثلة تؤثر عليها قوى بسيطة متشابهة جاذبة وطاردة ضمن قوانين عامة، أي أن عملها يقتصر على التأثير بتحريك بعضها للبعض من مكان إلى مكان وبهذا الجذب والطرد تتجمع أجزاء وتتفرق أجزاء وتتنوع أشكال المادة.

وعلى هذا الأساس حصرت المادية الميكانيكية التطور والحركة بحركة الأجسام والجسيمات في الفضاء من مكان إلى مكان، وفسرت أشكال المادة المختلفة بأنها طرق شتى لتجمع تلك الجسيمات وتوزعها دون أن يحدث من خلال تطور المادة شيء جديد فالمادة لا تنمو في وجودها ولا تترقى في تطورها وإنما تتجمع وتتوزع بطرق مختلفة كالعجينة بيدك حين تشكلها بأشكال مختلفة وتظل دائماً هي العجينة نفسها دون جديد.

وهذه الفرضية أوحى بها تطور علم الميكانيك الذي كان أول العلوم الطبيعية تحرراً وانطلاقاً في أساليب البحث العلمي، وشجع عليها ما أحرزه هذا العلم من نجاح في اكتشاف قوانين الحركة الميكانيكية وتفسير الحركات المألوفة للأجسام الإعتيادية على أساسها بما فيها حركات الكواكب في الفضاء.

ولكن إستمرار تطور العلم وامتداد أساليب البحث العلمي إلى مجالات متنوعة أخرى أثبت بطلان تلك الفرضية وعجزها من ناحية عن تفسير كل الحركات المكانية تفسيراً ميكانيكياً ، وقصورها من ناحية أخرى عن إستيعاب كل أشكال المادة ضمن الحركة الميكانيكية للأجسام والجسيمات من مكان إلى مكان، وأكد العلم ما أدركه الإنسان بفطرته من أن تنوع أشكال المادة لا يعود إلى مجرد نقلة مكانية من مكان بل إلى ألوان من التطور النوعي والكيفي وثبت من خلال التجارب العلمية أن أي تركيب عددي للجسيمات لا يمثل حياة أو إحساساً أو فكراً وهذا يجعلنا أمام تصور يختلف كل الإختلاف عن التصور الذي تقدمه المادية الميكانيكية إذ نواجه في الحياة والإحساس والفكر عملية نمو حقيقية في المادة وتطور نوعي في درجات وجودها، سواءاً كان محتوى هذا التطور النوعي شيئاً مادياً من درجة أعلى أو شيئاً لا مادياً.

هذه هي القضايا الثلاث:

١ ـ كل حادثة لها سبب.

٢ ـ الأدنى لا يكون سبباً لما هو أعلى منه درجة.

٣ ـ إختلاف درجات الوجود في هذا الكون وتنوع أشكاله كيفياً.

وفي ضوء هذه القضايا الثلاث نعرف أنا نواجه في الأشكال النوعية المتطورة نمواً حقاً أي تكاملاً في وجود المادة وزيادة نوعية فيه، فمن حقنا أن نتساءل من أين جاءت هذه الزيادة؟ وكيف ظهرت هذه الإضافة الجديدة ما دام أن لكل حادثة سبباً تقدم؟

وتوجد بهذا الصدد إجابتان:

إحداهما: أنها جاءت من المادة نفسها فالمادة التي لا حياة فيها ولا إحساس ولا فكر أبدعت من خلال تطورها الحياة والإحساس والفكر، أي أن الشكل الأدنى من وجود المادة كان هو السبب في وجود الشكل الأعلى درجة الأغنى محتوى.

وهذه الإجابة تتعارض مع القضية الثانية المتقدمة التي تقرر أن الشكل الأدنى درجة لا يمكن أن يكون سبباً لما هو أكبر منه درجة وأغنى منه محتوى من أشكال الوجود، فافتراض أن المادة الميتة التي لا تنبض بالحياة تمنح لنفسها أو لمادة أخرى الحياة والإحساس والتفكير يشابه افتراض أن الإنسان الذي يجهل اللغة الانجليزية يمارس تدريسها وأن درجة الضوء الباهت بإمكانها أن تعطينا ضوءاً أكبر درجة كضوء الشمس وأن الفقير الذي لا يملك رصيداً يمون المشاريع الرأسمالية.

والإجابة الثانية على السؤال: أن هذه الزيادة الجديدة التي تعبر عنها المادة من خلال تطورها جاءت من مصدر يتمتع بكل ما تحتويه تلك الزيادة الجديدة من حياة وإحساس وفكر وهو الله رب العالمين سبحانه وتعالى وليس نمو المادة إلا تنمية وتربية يمارسها رب العالمين بحكمته وتدبيره وربوبيته **﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ (والمؤمنون ١٢ ـ ١٤).**

وهذه هي الإجابة الوحيدة التي تنسجم مع القضايا الثلاث المتقدمة وتستطيع أن تعطي تفسيراً معقولاً لعملية النمو والتكامل في أشكال الوجود على ساحة هذا الكون الرحيب.

وإلى هذا الدليل يشير القرآن الكريم في عدد من آياته التي يخاطب بها فطرة الإنسان السليمة وعقله السوي.

﴿فرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾.

﴿فرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾.

﴿فرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون﴾.

﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾.

صدق الله العلي العظيم

موقف المادية من هذا الدليل

ونشير الآن إلى موقف المادية من هذا الدليل.

إن المادية الميكانيكية غير محرجة في مواجهة هذا الدليل لأنها كما عرفنا تفسير الحياة والإحساس والفكر بأنها أشكال من التجميع والتوزيع للأجسام والجسمات لا أكثر فلا يحدث من خلالها شيء جديد سوى حركة الأجزاء وفقاً لقوى ميكانيكية.

وأما المادية الحديثة فهي لإيمانها بالتطور النوعي والكيفي للمادة من خلال هذه الأشكال تواجه إحراجاً في هذا الدليل، غير أنها اختارت اسلوباً في تفسير هذا التطور الكيفي توفق فيه بين القضية الثانية المتقدمة ورغبتها في الإكتفاء بالمادة وحدها كتفسير لكل تطوراتها وهذا الأسلوب هو أن المادة هي مصدر العطاء وهي التي تمون عملية التطور الكيفي ولكن لا كما يمون الفقير المشاريع الرأسمالية لكي يتعارض مع القضية الثانية المتقدمة، بل أن ذلك يتم على أساس أن كل أشكال التطور ومحتوياته موجودة في المادة منذ البدء فالدجاجة موجودة في البيضة والغاز موجود في الماء وهكذا.

أما كيف تكون المادة في وقت واحد بيضة ودجاجة أو ماءاً وغازاً فتجيب المادية الجدلية على ذلك بأن هذا تناقض والتناقض هو قانون الطبيعة العام، فكل شيء يحتوي على نقيضه ـ ضده ـ في أحشائه وهو في صراع مستمر مع هذا النقيض، وبهذا الصراع بين النقيضين ينمو النقيض الداخلي حتى يبرز ويحقق تحولاً في المادة، كالبيضة تنفجر في لحظة معينة ويبرز فرخ الدجاجة من داخلها، وعن هذا الطريق تتكامل المادة باستمرار لأن النقيض الذي يبرز من خلال الصراع يمثل المستقبل أي خطوة إلى الأمام.

ونلاحظ على ذلك ما يلي:

إن المادة الحديثة ماذا تقصد بالضبط من أن الشيء يحتوي على نقيضه أو ضده وعلى التحديد أي المعاني التالية هو المقصود؟

١ ـ فهل يراد بذلك أن البيضة وفرخ الدجاجة نقيضان أو ضدان وأن البيضة تصنع الفرخ وتسبغ عليه صفات الحياة أي أن الميت يلد الحي ويصنع الحياة. وهذا تماماً كالفقير الذي يمون المشاريع الرأسمالية يتعارض مع البديهية المتقدمة.

٢ ـ أو يراد بذلك أن البيضة لا تصنع الفرخ بل تبرزه بعد أن كان كامناً فيها لأن كل شيء يكمن فيه نقيضه، فالبيضة حينما كانت بيضة هي في نفس الوقت فرخ دجاجة كالصورة التي تبدو من جانب بشكل ومن جانب آخر بشكل مختلف.

ومن الواضح أن البيضة إذا كانت في نفس الوقت فرخ دجاجة فلا توجد هناك أي عملية نمو أو تكامل عندما تصبح البيضة دجاجة لأن كل ما وجد الآن كان موجوداً منذ البدء تماماً كالشخص يخرج نقوده من جيبه فلا يزداد بذلك ثراء لأن كل ما بيده الآن من نقود كان في جيبه، فلكي تكون هناك عملية نمو وتكامل ويحدث شيء جديد حقاً من خلال تحول البيضة إلى دجاجة لابد أن نقول بأن البيضة لم تكن دجاجة أو فرخ دجاجة بل كانت مشروع دجاجة أي

شيئاً صالحاً لأن يصبح دجاجة، وبهذا تتميز عن الحجر فقطعة الحجر لا يمكن أن تكون دجاجة وأما البيضة فبالإمكان أن تكون دجاجة ضمن شروط وظروف معينة، ومجرد أن الشيء ممكن لا يعني وقوعه فإذا أصبحت البيضة دجاجة حقاً فلا يكفي مجرد الإمكان تفسيراً لذلك.

ومن ناحية أخرى إذا كانت أشكال المادة ناتجة عن تناقضاتها الداخلية فيجب أن تفسر تنوع هذه الأشكال على أساس تنوع تلك التناقضات الداخلية فالبيضة لها تناقضاتها الخاصة التي تختلف عن تناقضات الماء ولهذا تتمخض تلك التناقضات عن دجاجة وهذه عن غاز. وهذا افتراض يبدو ميسوراً عندما نتحدث عن مرحلة متأخرة من مراحل تنوع أشكال المادة على مستوى الجسيمات التي تشكل الوحدات الأساسية في الكون من بروتونات ونترونات والكترونات وبروتونات مضادة وإلكترونات مضادة وفوتونات؟ فهل اتخذ كل جسيم شكلاً خاصاً من هذه الأشكال عن أساس تناقضاته الداخلية فكان البروتون موجوداً في أحشاء مادته ثم برز من خلال الحركة والصراع كالدجاجة مع البيضة؟.

إذا كنا نفترض ذلك فكيف نبرر تنوع الأشكال التي اتخذتها تلك الجسيمات مع أن هذا يفترض بمنطق التناقض الداخلي أن تكون تلك الجسيمات متنوعة مختلفة في تناقضاتها الداخلية أي أنها مختلفة في كيانها الداخلي ونحن نعلم أن العلم الحديث يتجه إلى الإعتقاد بوحدة كيان المادة وأن المحتوى الداخلي للمادة واحد وليست الأشكال التي تتخذها الإحالات متبادلة على محتوى واحد ثابت ولهذا كان بالإمكان أن يتحول البروتون إلى نترون وبالعكس أي أن يتغير شكل الجسيم - فضلاً عن الذرة أو الجزيء - مع وحدة المحتوى وثباته، وهذا يعني أن المحتوى واحد في الجميع وان اختلفت الأشكال فكيف يمكن أن نفترض أن هذه الأشكال نتجت عن تناقضات داخلية مختلفة.

إن مثال البيضة والدجاجة نفسه نافع لتوضيح هذا الموقف فإنه لكي

تتنوع الأشكال التي تتخذها بيضات عديدة من خلال تناقضاتها الداخلية المفترضة لابد أن تكون متغايرة في تركيبها الداخلي، فبيضة الدجاجة وبيضة الطير تنتجان شكلين متغايرين وهما الدجاجة والطير. وأما إذا كانت البيضتان من نوع واحد كبيضتي دجاجة فلا يمكن أن نفترض أن تناقضاتهما الداخلية تؤدي إلى شكلين مختلفين.

وهكذا نلاحظ أن تفسير المادية الحديثة لأشكال المادة على أساس تناقضاتها الداخلية وإتجاه العلم الحديث إلى التأكيد على وحدة المحتوى الداخلي للمادة يسيران في خطين متغايرين.

٣ ـ أو يراد بذلك أن البيضة نفسها تعبر عن ضدين أو نقيضين مستقلين لكل منهما وجوده الخاص أحدهما يتمثل في النطفة التي سببها في داخل البيضة اللقاح والآخر سائر ما تحتويه البيضة من مواد، وهذان الضدان وحدتهما معركة في داخل قشر البيضة ومن خلال هذا الصراع برز أحد الضدين وانتصرت النطفة فتحولت البيضة إلى دجاجة.

وهذا النوع من الصراع بين الأضداد شيء مألوف في حياة الناس وقديم في تصوراتهم الاعتيادية فضلاً عن تصوراتهم الفلسفية، ولكن لماذا نسمي هذا التفاعل بين النطفة والمواد الطبيعية المكونة للبيضة تناقضاً؟ لماذا نسمي التفاعل بين البذرة والتربة والهواء تناقضاً؟ لماذا نسمي التفاعل بين الجنين في رحم أمه وما يستمده من غذاء تناقضاً؟ إنها مجرد تسمية وليست بأفضل من أن يقال أن أحدهما يندمج في الآخر أو يتوحد فيه.

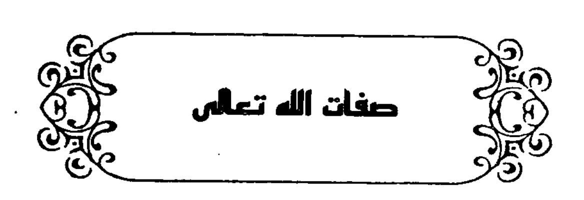
وهب أنا سمينا ذلك تناقضاً فلن تحل المشكلة بذلك ما دمنا نسلم بأن هذا التفاعل الخاص بين الضدين يؤدي إلى نتيجة أكبر إلى عملية نمو إلى شيء جديد يزيد على المجموع العددي لهما فمن أين جاءت هذه الزيادة وهل جاءت من الضدين المتصارعين الفاقدين معاً لها مع أن فاقد الشيء لا يعطيه بحكم القضية الثانية من القضايا الثلاث المتقدمة.

وهل نعرف من الطبيعة مثالاً يكون فيه التضاد والصراع بين الأضداد عامل تنمية حقاً؟ وكيف يساهم الضد في تنمية ضده عن طريق الصراع معه مع أن هذا الصراع يعني درجة من المقاومة والرفض، وكل مقاومة تنقص من طاقة الطرف الآخر على التحرك والنمو بدلاً من أن تساعده على ذلك. وكلنا نعرف أن السباح إذا تعرض في سباحته لأمواج مضادة من الماء فإن هذا سوف يعيقه عن التحرك إلى درجة كبيرة بدلاً عن أن يكون سبباً في التحرك.

وإذا كان الصراع بين الأضداد ـ بأي معنى كان ـ هو الأساس في تنمية البيضة وتطويرها إلى دجاجة فأين التنمية التي يؤديها الصراع بين الأضداد في تحول الماء إلى غاز ثم رجوعه ماء مرة أخرى؟

والطبيعة تكشف لنا باستمرار أضداداً يؤدي إلتحامها أو اللقاء بينها إلى دمارها معاً بدلاً عن التطور والتكامل، فالبروتون الموجب الذي يشكل الحجر الأساسي في نواة الذرة ويحمل شحنة موجبة له بروتون مضاد سالب والالكترون السالب الذي يتحرك في مدار الذرة له الكترون مضاد موجب وإذا حدث أن التقى أحد هذين الضدين بضده تحدث عمليات إفناء ذرية تختفي معها معالم المادة من الوجود بينما تنطلق طاقات وتنتشر في الفضاء.

نخلص من كل ذلك إلى أن حركة المادة بدون تموين وإمداد من خارج لا يمكن أن تحدث تنمية حقيقية، وتطوراً إلى شكل أعلى ودرجة أكثر تركيزاً فلابد لكي تنمو المادة وترتفع الى مستويات عليا كالحياة والأحساس والتفكير من رب يتمتع بتلك الخصائص ليستطيع أن يمنحها للمادة، وليس دور المادة في عمليات النمو هذه إلا دور الصلاحية والتهيء والامكان دور الطفل الصالح والمتهيء لتقبل الدرس من مربيه فتبارك الله رب العالمين.



صفات الله تعالى

حينما نؤمن بالله سبحانه وتعالى خالقاً للكون ومربياً له ومنظماً لمسيرته وفق الحكمة والتدبير ينتج عن ذلك طبيعياً أن نتعرف على صفاته من خلال صنعه وإبداعه ونقيم خصائصه بما تشع به مصنوعاته من دلالات، تماماً كما نقيم أي مهندس على أساس الصفات التي تميز انتاجه الهندسي، ونقيم المؤلف على ضوء ما يحويه كتابه من علم ومعرفة، ونحدد شخصية المربي عن طريق ما أودع فيمن رباهم من شمائل وخصال.

وبهذا نستطيع أن نأخذ لمحة عما يتصف، للصانع العظيم من علم وحكمة وحياة وقدرة وبصر وسمع، لأن ما في نظام الكون من دقة وإبداع يكشف عن العلم والحكمة، وما في أعماقه من طاقات يدلل على القدرة والسيطرة، وما في أشكاله من ألوان الحياة ودرجات الإدراك العقلي والحسي يدل على ما يتمتع به الصانع من حياة وإدراك، ووحدة الخطة والبناء في تصميم هذا الكون والترابط الوثيق بين مختلف جوانبه تشير إلى وحدة الخالق ووحدة الخبرة التي انبثق عنها هذا الكون الكبير.

عدله واستقامته

كلنا نؤمن ـ بعقلنا الفطري البديهي ـ بقيم عامة للسلوك وهي القيم التي

تؤكد أن العدل حق وخير والظلم باطل وشر وأن من يعدل في سلوكه جدير بالإحترام والمثوبة ومن يظلم ويعتدي جدير بعكس ذلك ، وهذه القيم بحكم الاستقراء والفطرة هي الأساس الذي يوجه سلوك الإنسان ما لم يكن هناك ما يحول دون ذلك من جهل أو ترقب نفع ، فكل إنسان إذا واجه خياراً بين الصدق والكذب في حديثه مثلاً أو بين الأمانة والخيانة فإنه يختار الصدق على الكذب والأمانة على الخيانة ما لم يكن هناك دافع شخصي ومصلحة خاصة قد تغريه بالإنحراف في سلوكه عن تلك القيم .

ويعني ذلك أن من لا توجد لديه حاجة إلى شخص أو مصلحة في خداعه أو خيانته أو ظلمه يسلك معه سلوك الصادق الأمين العادل أي سلوكاً مستقيماً وهذا بالضبط ما ينطبق على الصانع الحكيم سبحانه وتعالى فإنه محيط بتلك القيم التي ندركها بعقلنا الفطري لأنه هو الذي وهبنا هذا العقل وهو في نفس الوقت بحكم قدرته الهائلة وسيطرته الشاملة على الكون ليس بحاجة إلى أي مساومة أو لف ودوران ومن هنا نؤمن بأن الله سبحانه وتعالى عادل لا يظلم أحداً .

عدل الله تعالى يثبت الجزاء

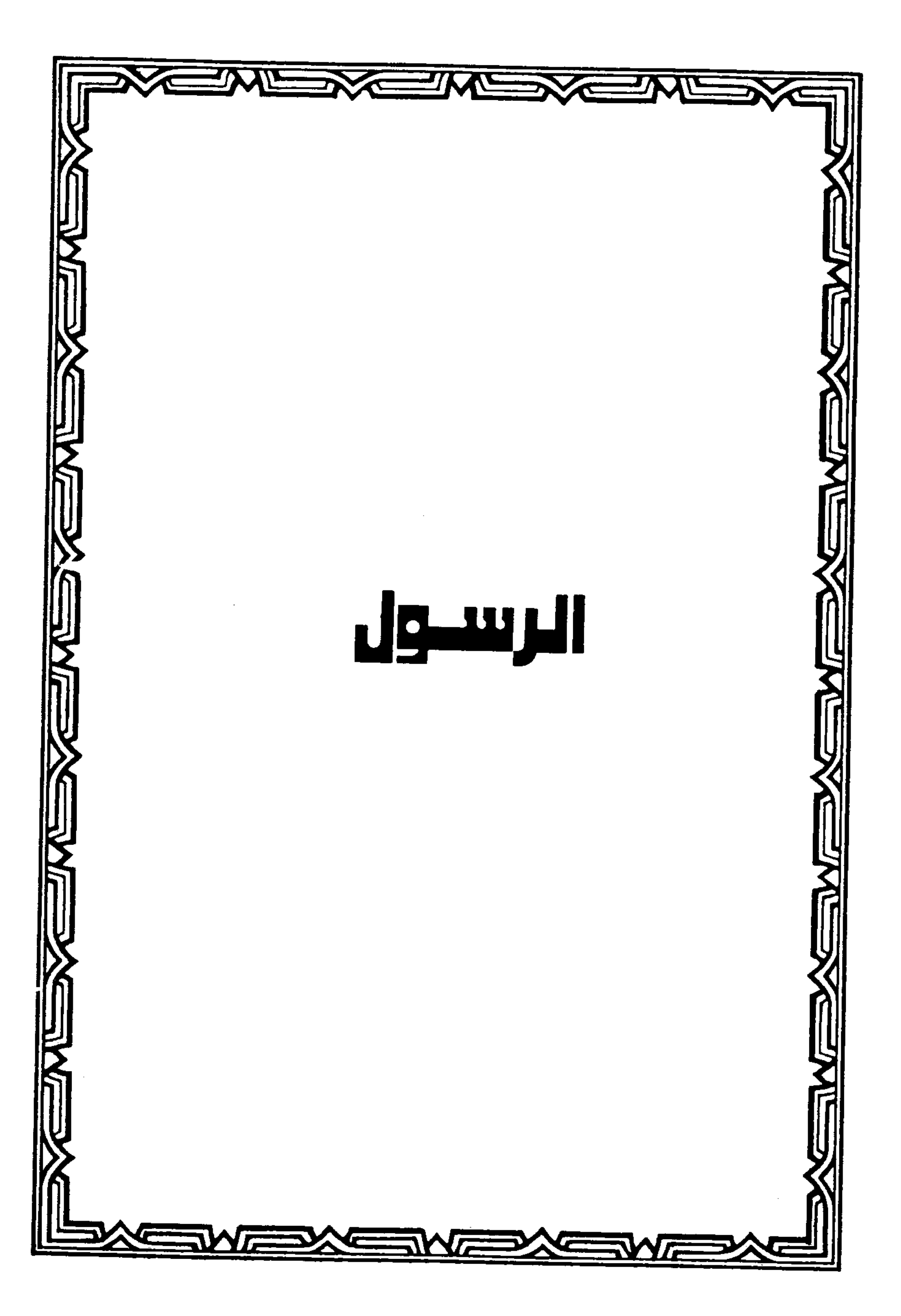
إن القيم التي آمنا بها تدعو كما عرفنا إلى العدل والاستقامة والأمانة والصدق والوفاء ونحوها من صفات وتشجب الصفات المضادة لها . وهذه القيم لا تدعو إلى تلك الصفات وتشجب هذه الصفات فقط بل تطالب بالجزاء المناسب لكل منهما فإن العقل الفطري السليم يدرك أن الظالم والخائن جدير بالمؤاخذة وأن العادل الأمين الذي يضحي في سبيل العدل والأمانة جدير بالمثوبة . وكل واحد منا يجد في نفسه دافعاً من تلك القيم إلى مؤاخذة الظالم المنحرف وتقدير العادل المستقيم ولا يحول دون تنفيذ هذا الدافع عند أحد إلا عجزه عن إتخاذ الموقف المناسب أو تحيزه الشخصي .

وما دمنا نؤمن بأن الله سبحانه وتعالى عادل مستقيم في سلوكه وقادر على

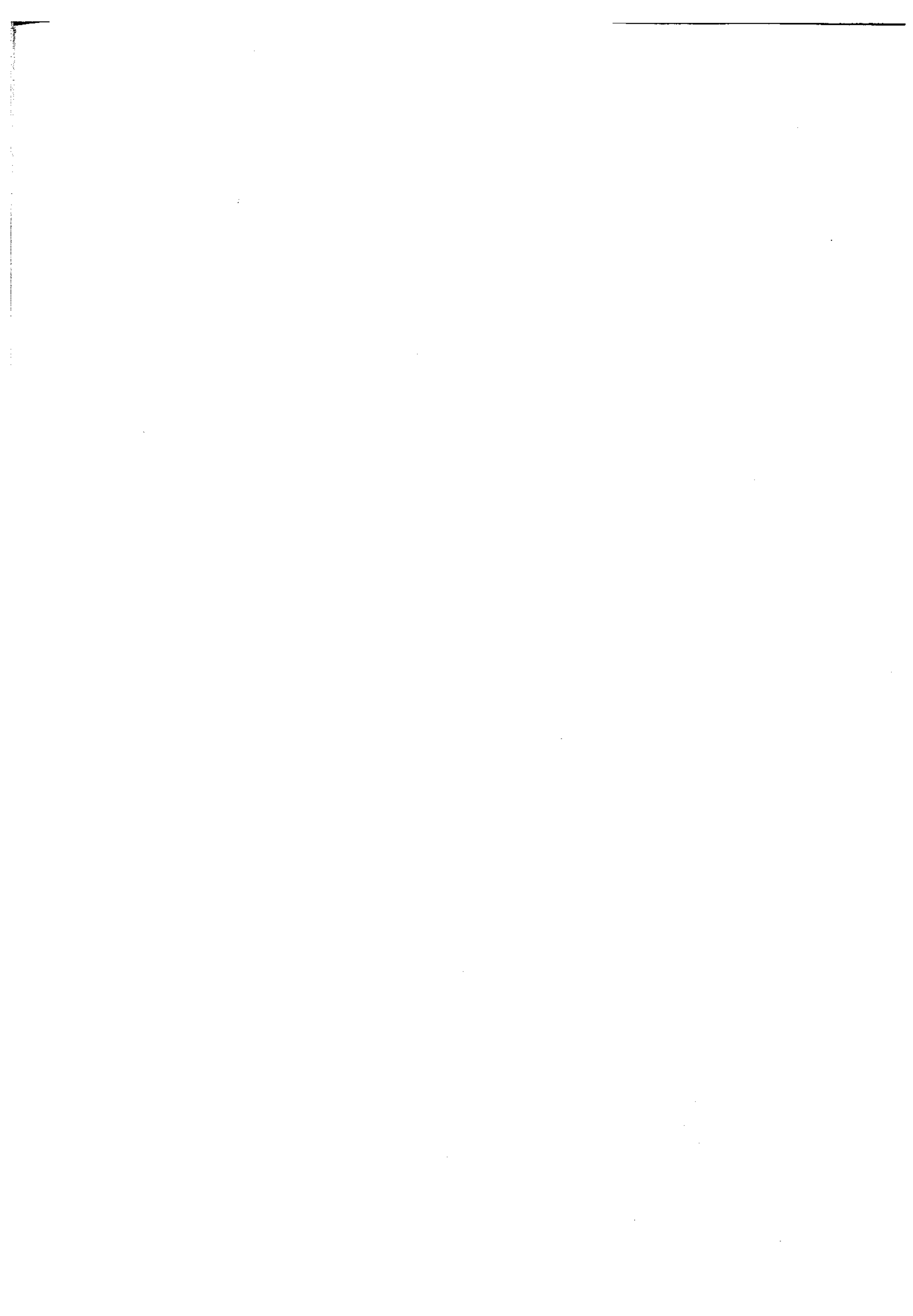
الجزاء المناسب ثواباً وعقاباً فلا يوجد ما يحول دون تنفيذه عز وجل لتلك القيم التي تفرض الجزاء العادل وتحدد المردود المناسب للسلوك الشريف والسلوك الشائن، فمن الطبيعي أن نستنتج من ذلك أن الله سبحانه يجازي المحسن على أحسانه وينتصف للمظلوم من ظالمه.

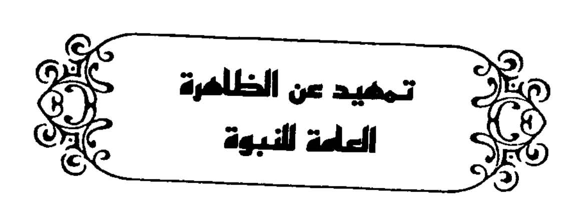
ولكنا نلاحظ في نفس الوقت هذا الجزاء كثيراً ما لا يتحقق في هذه الحياة التي نحياها على هذه الأرض على الرغم من أنه مقدور لله سبحانه وتعالى. وهذا يبرهن بعد ملاحظة المعلومات السابقة على وجود يوم مقبل للجزاء يجد فيه العامل المجهول الذي ضحى من أجل هدف كبير ولم يقطف ثمار تضحيته والظالم الذي أفلت من العقاب العاجل وعاش على دماء المظلومين وحطامهم يجد هذا وذاك فيه جزاءهما العادل وهذا هو يوم القيامة الذي يجسد كل تلك القيم المطلقة للسلوك وبدونه لا يكون لتلك القيم معنى.





الرسول





تمهيد عن الظاهرة العامة للنبوة

كل شيء في هذا الكون الواسع يحمل معه قانونه الرباني الصارم الذي يوجهه ويرتفع به مدى ما يتاح له من إرتفاع وتطور، فالبذرة يتحكم فيها قانونها الذي يحولها ضمن شروط معينة إلى شجرة ، والنطفة يتحكم فيها قانونها الذي يطورها إلى إنسان، وكل شيء من الشمس إلى البروتون ومن الكواكب السيارة في مدار الشمس إلى الإلكترونات السيارة في مدار البروتون يسير وفق خطة ويتطور وفق إمكاناته الخاصة.

وهذا التنظيم الرباني الشامل امتد بحكم الاستقراء العلمي إلى كل جوانب الكون وظواهره.

وقد تكون أهم ظاهرة في الكون هي ظاهرة الاختيار لدى الإنسان فإن الإنسان كائن مختار ويعني ذلك أنه كائن هادف أي يعمل من أجل هدف يتوخى تحقيقه بذلك العمل، فهو يحفر الأرض من أجل أن يستخرج ماء ويطهي الطعام من أجل أن يأكل طعاماً لذيذاً ويجرب ظاهرة طبيعية من أجل أن يتعرف على قانونها وهكذا، بينما الكائنات الطبيعية البحتة تعمل من أجل أهداف مرسومة من قبل واضح الخطة لا من أجل أهداف تعيشها هي وتتوخى تحقيقها، فالرئة والمعدة والأعصاب في ممارسة وظائفها الفسيولوجية تعمل

عملاً هادفاً ولكن الهدف هنا لا تعيشه هي من خلال نشاطها الطبيعي والفسيولوجي الخاص وإنما هو هدف الصانع الخبير. ولما كان الإنسان كائناً هادفاً ترتبط مواقفه العملية بأهداف يعيها ويتصرف بموجبها فهذا يفترض ضمناً أن الإنسان في مواقفه العملية هذه ليس مسيراً وفق قانون طبيعي صارم كما تسقط قطرة المطر في مسار محدد وفقاً لقانون الجاذبية لأنه في حالة من هذا القبيل لا يمكن أن يكون هادفاً أي يعمل من أجل هدف يعيش في داخل نفسه. فلكي يكون الإنسان هادفاً لابد أن يكون حراً في التصرف ليتاح له أن يتصرف وفقاً لما تنشأ في نفسه من أهداف ، فالترابط بين المواقف العملية والأهداف هو القانون الذي ينظم ظاهرة الاختيار لدى الإنسان، كما أن الهدف بدوره لا يتواجد بصورة عشوائية فإن كل إنسان يحدد أهدافه وفقاً لما تتطلبه مصلحة وذاته من حاجات، وهذه الحاجات تحددها البيئة والظروف الموضوعية التي تحيط بالإنسان غير أن هذه الظروف الموضوعية لا تحرك الإنسان مباشرة كما تحرك العاصفة أوراق الشجر لأن هذا يعطل دوره ككائن هادف، فلابد للظروف الموضوعية إذاً من تحريك الإنسان عن طريق الإثارة ترتبط بإدراك الإنسان للمصلحة في موقف عملي معين، ولكن ليست كل مصلحة تحقق إثارة للفرد وإنما تحققها تلك المصالح التي يدرك الفرد أنها مصالح له بالذات وذلك أن المصالح على قسمين فهناك مصالح على خط قصير تعود بالنفع غالباً على الفرد الهادف العامل نفسه ومصالح على خط طويل تعود بالنفع على الجماعة وكثيراً ما تتعارض مصالح الفرد ومصالح الجماعة، وهكذا نلاحظ - من ناحية - أن الإنسان غالباً لا يتحرك من أجل المصلحة لقيمها الإيجابية بل بقدر ما تحقق له من نفع خاص، ونلاحظ من - ناحية أخرى - أن خلق الظروف الموضوعية لضمان تحرك الإنسان وفق مصالح الجماعة شرط ضروري لاستقرار الحياة ونجاحها على الخط الطويل.

وعلى هذا الأساس واجه الإنسان تناقضاً بين ما تفرضه سنة الحياة واستقرارها من سلوك موضوعي واهتمام بمصالح الجماعة وما تدعو إليه نوازع الفرد واهتمامه بشخصه من سلوك ذاتي واهتمام بالمنافع الآتية الشخصية.

وكان لابد من صيغة تحل هذا التناقض وتخلق تلك الظروف الموضوعية التي تدعو إلى تحرك الإنسان وفق مصالح الجماعة.

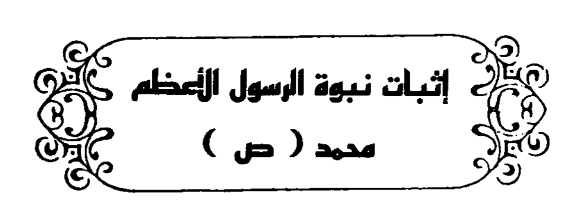
والنبوة بوصفها ظاهرة ربانية في حياة الإنسان هي القانون الذي وضع صيغة الحل هذه بتحويل مصالح الجماعة وكل المصالح الكبرى التي تتجاوز الخط القصير لحياة الإنسان إلى مصالح للفرد على خطه الطويل، وذلك عن طريق إشعاره بالامتداد بعد الموت والإنتقال إلى ساحة العدل والجزاء التي يحشر الناس فيها ليروا أعمالهم «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره»[1] وبذلك تعود مصالح الجماعة مصالح للفرد على هذا الخط الطويل.

وصيغة الحل هذه تتألف من نظرية وممارسة تربوية معينة للإنسان على أساسها، والنظرية هي المعاد يوم القيامة والممارسة التربوية على هذه النظرية عملية قيادية ربانية ولا يمكن إلا أن تكون ربانية لأنها عملية تعتمد على اليوم الآخر أي على الغيب فلا توجد إلا بوحي السماء وهي النبوة.

ومن هنا كانت النبوة والمعاد واجهتين لصيغة واحدة هي الحل الوحيد لذلك التناقض الشامل في حياة الإنسان وتشكل الشرط الأساسي لتنمية ظاهرة الإختيار وتطويرها في خدمة المصالح الحقيقية للإنسان.

---

(١) سورة الزلزلة آية ٧ ـ ٨.



إثبات نبوة الرسول الأعظم محمد (ص)

كما ثبتِ الصانع الحكيم بالدليل الاستقرائي، ومناهج الإستدلال العلمي. كذلك تثبت نبوة محمد صلى الله عليه وآله ، بالدليل العلمي الإستقرائي وبنفس المناهج التي نستخدمها في الإستدلال على الحقائق المختلفة في حياتنا الإعتيادية وحياتنا العلمية.

ولنمهد لذلك بأمثلة أيضاً:

إذا تسلم الإنسان رسالة من أحد أقاربه، وكان هذا القريب صبياً يدرس في مدرسة أبتدائية بإحد الأرياف فلاحظ الإنسان الذي تسلم الرسالة، أنها قد كتبت بلغة حديثة، وبعبارات مركزة وبليغة، وبقدرة فنية فائقة، على تنسيق الأفكار وعرضها بصورة مثيرة ، إذا تسلم الإنسان رسالة من هذا القبيل، فسوف يستنتج أن شخصاً مثقفاً، واسع الاطلاع، قوي العبارة، قد أملى الرسالة على هذا الصبي، أو شيئاً من هذا القبيل.

وإذا أردنا أن نحلل هذا الاستنتاج والإستدلال نجد أن بالإمكان تجزئته إلى الخطوات التالية:

الأولى: أن كاتب الرسالة صبي ريفي ويدرس في مدرسة ابتدائية.

الثانية : أن الرسالة تتميز بأسلوب بليغ، ودرجة كبيرة من الإجادة الفنية وقدرة فائقة على تنسيق الافكار.

الثالثة: أن الإستقراء: يثبت في الحالات المماثلة، أن صبياً بتلك المواصفات التي تقدمت في الخطوة الأولى، لا يمكنه أن يصوغ رسالة، بالمواصفات التي لوحظت في الخطوة الثانية.

الرابعة: يستنتج من ذلك، إذن إن الرسالة من نتاج شخص آخر، أستطاع ذلك الصبي بشكل وآخر، أن يستفيد منه ويسجله في رسالته.

ومثال آخر للفكرة نفسها من الأدلة العلمية، وهو الدليل الذي أثبت به العلماء الاكترون، فقد درس بعض العلماء نوعاً معيناً من الأشعة، ولدها في انبوبة مغلقة، ثم سلط على وسط الأنبوبة قطعة مغناطيس، على شكل نعل الفرس، فلاحظ أن الأشعة تميل إلى القطب الموجب من المغناطيس، وتبتعد عن القطب السالب منه وكرر التجربة في ظروف مختلفة، حتى تأكد من ان تلك الأشعة تنجذب بالمغناطيس، وأن القطب الموجب في المغناطيس هو الذي يجذبها. ولما كان هذا العالم يعرف بإستقرائه ودراسته للإشعاعات الأخرى، كالضوء الإعتيادي إنها لا تتأثر بالمغناطيس، ولا تنجذب إليه، وأن المغناطيس يجذب الأجسام، لا الأشعة، أمكنه أن يدرك أن انجذاب الأشعة المعينة التي كان يجري عليها تجاربه، وميلها إلى القطب الموجب من المغناطيس، لا يمكن أن يفسر على أساس المعلومات المفترضة. ومن هنا اكتشف عاملاً إضافياً وحقيقة جديدة: وهي إن هذه الأشعة، تتألف من أجسام دقيقة سالبة، موجودة في جميع المواد، لأنها تنبعث من مختلف المواد. وسميت هذه الجسيمات بالالكترونات.

وتتلخص عملية الإستدلال في كلا هذين المثالين، ـ مثال الرسالة ومثال الالكترون ـ في إنه كلما لوحظت ظاهرة معينة، ضمن عوامل وظروف محسوسة، ولوحظ استقرائياً أن هذه العوامل والظروف المحسوسة في الحالات المماثلة، لا تؤدي إلى نفس الظاهرة، فيدل ذلك على وجود عامل آخر غير منظور لابد من افتراضه لتفسير تلك الظاهرة.

وبكلمة أخرى أن النتيجة. إذا جاءت أكبر من الظروف، والعوامل المحسوسة، بحكم الاستقراء للحالات المماثلة، كشفت عن وجود شيء غير منظور وراء تلك الظروف والعوامل المحسوسة.

وهذا ما يصدق تماماً على نبوة الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والرسالة التي أعلنها على العالم باسم السماء.

وذلك ضمن الخطوات التالية:

الأولى إن هذا الشخص، الذي أعلن رسالته على العالم باسم السماء، ينتسب إلى شبه الجزيرة العربية، التي كانت من أشد أجزاء الأرض تخلفاً في ذلك الحين من الناحية الحضارية. والفكرية. والاجتماعية والسياسية، والاقتصادية. وينتمي إلى الحجاز بالذات، من أقطار تلك الجزيرة. وهو قطر لم يمر حتى تاريخياً بمثل الحضارات، التي نشأت قبل ذلك بمئات السنين. في مواضع أخرى محددة من تلك الجزيرة. ولم يعرف أي تجربة إجتماعية متكاملة، ولم ينل هذا القطر من ثقافة عصره، على الرغم من انخفاضها عموماً. شيئاً يذكر. ولم ينعكس على أدبه وشعره شيء ملحوظ، من أفكار العالم وتياراته الثقافية وقتئذ. وكان منغمساً من الناحية العقائدية في فوضى الشرك والوثنية، ومفككاً إجتماعياً، تسيطر عليه عقلية العشيرة، وتلعب فيه، الانتماءات إلى هذه العشيرة أو تلك، الدور الأساسي في أكثر أوجه النشاط، بكل ما يؤدي إليه ذلك من التناقضات، وألوان الغزو والصراع الرخيص. ولم يكن البلد الذي نشأ فيه هذا الرسول، قد عرف أي شكل من أشكال الحكم سوى ما يفرضه الولاء للقبيلة من مواضعات

ولم يكن وضع القوى المنتجة، والظروف الاقتصادية في ذلك الجزء من العالم. يتميز عن أكثر بقاع العالم، المتخلف حينذاك.

وحتى القراءة والكتابة بوصفها ابسط أشكال الثقافة، كانت حالة نادرة نسبياً في تلك البيئة، إذ كان المجتمع أمياً على العموم.

﴿هُوَ الذي بَعَثَ في الأميّين رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكّيهِم وَيُعَلّمُهُمْ الكِتَابَ وَالحكْمَةَ وَإنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضَلالٍ مُبين﴾[1].

وكان شخص النبي يمثل الحالة الاعتيادية من هذه الناحية، فلم يكن قبل البعثة يقرأ ويكتب، ولم يتلق أي تعليم منظم، أو غير منظم.

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطّهُ بِيَمِيْنِكَ إذاً لارْتَابَ المُبْطِلُونَ﴾[2].

وهذا النص القرآني، دليل واضح على مستوى ثقافة الرسول، قبل البعثة. وهو دليل حاسم حتى في حق من لا يؤمن بربانية القرآن، لأنه على أي حال نص، أعلنه النبي على بني قومه، وتحدث به إلى أعرف الناس بحياته وتاريخه، فلم يعترض أحد على ما قال، ولم ينكر أحد ما أدعى، بل نلاحظ أن النبي لم يساهم قبل البعثة حتى في ألوان النشاط الثقافي، الذي كان شائعاً في قومه. من شعر، وخطابة، ولم يؤثر عنه أيّ تميز عن أبناء قومه، إلا في التزاماته الخلقية، وأمانته، ونزاهته، وصدقه، وعفته.

وقد عاش أربعين سنة قبل البعثة في قومه، دون أن يحس الناس من حوله بأي شيء يميزه عنهم، سوى ذلك السلوك النظيف، ودون أن تبرز في حياته أي بذور عملية أو، إتجاهات جادة، نحو عملية التغيير الكبرى، التي طلع بها على العالم فجأة بعد أربعين عاماً من عمره الشريف.

---

(١) سورة الجمعة (٢).

(٢) سورة العنكبوت (٤٨).

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أدرَيْكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعقِلُونَ﴾[1].

وكان النبي (ص) قد ولد في مكة، وظل فيها طيلة الفترة التي سبقت البعثة، ولم يغادرها إلى خارج الجزيرة العربية إلا في سفرتين قصيرتين: إحداهما مع عمه أبي طالب وهو صبي في أوائل العقد الثاني، والأخرى بأموال خديجة وهو في أواسط العقد الثالث. ولم يتيسر له بحكم عدم تعلمه للقراءة والكتابة أن يقرأ شيئاً من النصوص الدينية لليهودية أو المسيحية. كما لم يتسرب إليه أي شيء ملحوظ من تلك النصوص، عن طريق البيئة، لأن مكة كانت وثنية في أفكارها. وعاداتها ولم يتسرب إليها الفكر المسيحي أو اليهودي ولم يدخل الدين إلى حياتها بشكل من الأشكال، وحتى أولئك الحنفاء الذين رفضوا عبادة الأصنام من عرب مكة، لم يكونوا قد تأثروا باليهودية أو المسيحية، ولم ينعكس شيء من الأفكار اليهودية والمسيحية على ما خلفه قس ابن ساعدة، أو غيره من تراث أدبي وشعري.

ولو كان النبي قد بذل أي جهد للإطلاع على مصادر الفكر اليهودي والمسيحي، للوحظ ذلك، إذ في بيئة ساذجة ومنقطعة الصلة بمصادر الفكر اليهودي والمسيحي ومعقدة ضدها لا يمكن أن تمر محاولة من هذا القبيل، دون أن تلفت الأنظار، ودون أن تترك بصماتها على كثير من التحركات والعلاقات.

الثانية: أن الرسالة التي طلع بها النبي على العالم متمثلة في القرآن الكريم، والشريعة الإسلامية، تميزت بخصائص كثيرة.

منها: إنها جاءت بنمط فريد، من الثقافة الإلهية عن الله سبحانه وتعالى، وصفاته، وعلمه، وقدرته، ونوع العلاقات بينه وبين الإنسان،

---

(١) سورة يونس (١٦).

ودور الأنبياء في هداية البشرية، ووحدة رسالتهم، وما تميزوا به من قيم، ومثل، وسنن الله تعالى مع أنبيائه، والصراع المستمر بين الحق والباطل والعدل والظلم، والارتباط الوثيق المستمر لرسالات السماء بالمظلومين، والمضطهدين، وتناقضها المستمر مع أصحاب المصالح والامتيازات غير المشروعة، وهذه الثقافة الإلهية لم تكن أكبر من الوضع الفكري والديني، لمجتمع وثني منغمس في عبادة الأصنام فحسب، بل كانت أكبر من كل الثقافات الدينية التي عرفها العالم يومئذ، حتى أن أي مقارنة تبرز بوضوح، أنها جاءت لتصحح ما في تلك الثقافات من اخطاء وتعدل ما أصابها من انحراف، وتعيدها إلى حكم الفطرة والعقل السليم.

وقد جاء كل ذلك على يد إنسان أمي، في مجتمع وثني شبه معزول، لا يعرف من ثقافة عصره وكتبه الدينية شيئاً يذكر. فضلاً عن أن يكون بمستوى القيمومة والتصحيح والتطوير.

ومنها أنها جاءت بقيم ومفاهيم عن الحياة، والإنسان. والعمل، والعلاقات الإجتماعية، وجسدت تلك القيم، والمفاهيم، في تشريعات، وأحكام، وكانت تلك القيم والمفاهيم، وهذه التشريعات والأحكام - حتى من وجهة نظر من لا يؤمن بربانيتها - من أنفس ومن أروع ما عرفه تاريخ الإنسان، من قيم حضارية وتشريعات إجتماعية.

فابن مجتمع القبيلة ظهر على مسرح العالم والتاريخ فجأة، لينادي بوحدة البشرية ككل.

وابن البيئة التي كرست ألواناً من التمييز والتفضيل على أساس العرق والنسب والوضع الاجتماعي، ظهر ليحطم كل تلك الألوان، ويعلن أن الناس سواسية كأسنان المشط.

و ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1].

---

(١) سورة الحجرات (١٣).

وليحول هذا الإعلان إلى حقيقة . يعيشها الناس أنفسهم ، ويرفع المرأة الموؤدة إلى مركزها الكريم ، كأنسانة تكافىء الرجل في الانسانية والكرامة .

وابن الصحراء التي لم تكن تفكر إلا في همومها الصغيرة وسد جوعتها ، والتفاخر بين ابنائها ضمن تقسيمها العشائري ، ظهر ليقودها إلى حمل أكبر الهموم ، ويوحدها في معركة تحرير العالم ، وانقاذ المظلومين في شرق الدنيا وغربها من استبداد كسرى وقيصر .

وابن ذلك الفراغ الشامل ، سياسياً واقتصادياً . بكل ما يضج به من تناقضات الربا ، والاحتكار ، والاستغلال ، ظهر فجأة ليملأ ذلك الفراغ ويجعل من ذلك المجتمع الفارغ مجتمعاً ممتلأ ، له نظامه في الحكم ، وشريعته في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية ، ويقضي على الربا ، والاحتكار ، والاستغلال ، ويعيد توزيع الثروة ، على أساس أن لا تكون دولة بين الأغنياء ويعلن مبادىء التكافل الاجتماعي ، والضمان الاجتماعي ، التي لم تناد بها التجربة الإجتماعية البشرية ، إلا بعد ذلك بمئات السنين .

وكل هذه التحولات الكبيرة ، تمت في مدة قصيرة جداً نسبياً ، في حساب التحولات الإجتماعية .

ومنها أن الرسالة في نصوص قرآنية كثيرة ، تحدثت عن تاريخ الأنبياء وأممهم ، وما مرت بهم من وقائع وأحداث بتفاصيل لم تكن بيئة النبي العربي الوثنية والامية تعرف شيئاً عنها ، وقد تحدى علماء الكتاب اليهود والنصارى ، النبي صلى الله عليه وآله أكثر من مرة ، وطالبوه بالحديث عن تاريخ تراثهم الديني ، فواجه التحدي بكل شجاعة ، وجاء القرآن بما طلبوا . دون ان تكون هناك أي وسيلة اعتيادية ، لتفسير اطلاع النبي شخصياً على تلك التفاصيل .

***

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيِّ إذ قَضَيْنَا إلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[1].
وَلكِنَّا أنشَأنا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيهِمُ العُمُرُ.
﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أهْلِ مَدينَ تَتلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنا وَلَكِنَا كُنَّا مُرْسلين﴾[2].
﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلكِن رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتذَكَّرُونَ﴾[3].

ومما يبهر الملاحظ أن القصص الحق في القرآن، لا يمكن أن تكون مجرد استنساخ لما جاء في كتب العهدين. حتى لو افترضنا أن أفكار هذه الكتب، كانت شائعة ومنتشرة في الوسط الذي ظهر فيه النبي، لأن الاستنساخ يمثل دوراً سلبياً فقط، دور الأخذ والعطاء. بينما دور القرآن في عرض القصة إيجابي، فإنه يصحح ويعدل، ويفصل القصة عما ألصقت بها من ملابسات، لا تتفق مع فطرة التوحيد والعقل المستنير والرؤية الدينية السليمة.

ومنها أن القرآن بلغ في روعة بيانه، وبلاغته وتجديده في أساليب البيان إلى درجة جعلت منه حتى من وجهة نظر غير المؤمنين بربانيته، حداً فاصلاً بين مرحلتين، من تاريخ اللغة العربية، وأساساً لتحول هائل في هذه اللغة وأساليبها.

وقد أحس العرب، الذين حدثهم النبي بالقرآن، بأنه لا يشبه اطلاقاً ما ألفوه من أساليب البيان، وما نشأوا عليه واتقنوه من طرائق التعبير، حتى قال قائلهم[4] حين استمع إلى القرآن:

---

(١) سورة القصص (٤٤).
(٢) سورة القصص (٤٥).
(٣) سورة القصص (٤٦).
(٤) الوليد بن المغيرة.

وَاللّٰهِ لَقَدْ سَمِعْتُ كَلَامـاً، مَا هُوَ مِنْ كَلَامِ الإِنْسِ ، وَلاَ مِنْ كَلَامِ الجِنِّ، وَإِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ، وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدَقٌ، وإِنَّهُ لَيَعْلُوْ وَمَا يُعْلَى، وَإِنَّهُ لَيُحَطِّمُ مَا تَحْتَهُ.

وكانوا لا يسمحون لأنفسهم بالاستماع إلى القرآن احساساً منهم بأثره الهائل، وخوفاً من قدرته الفائقة على تغيير نفوسهم، وهذا دليل على التميز الهائل للبيان القرآني، وعدم كونه استمراراً متطوراً لما ألفوه.

وقد استسلموا امام التحدي المستمر والمتصاعد، الذي واجههم النبي به. إذ أعلن تارة عجزهم مجتمعين عن الاتيان بمثله. وأكد أخرى عجزهم مجتمعين عن الإتيان بعشر سور مفتريات من مثله، وشدد ثالثة على عجزهم عن الإتيان بما يناظر سورة واحدة من القرآن الكريم، أعلن النبي ذلك وكرره على مجتمع لم يعرف صناعة، كما عرف صناعة الكلام، ولم يتقن فناً كما أتقن فن الحديث ولم يتعود على شيء كما تعود على مجابهة التحدي والتغني بالامجاد، ولم يحرص على أمر كما حرص على اطفاء نور الرسالة الجديدة وتطويقها، ومع ذلك كله لم يشأ هذا المجتمع الذي واجه تلك التحديات الكبيرة، أن يجرب نفسه، ولم يحاول أن يعارض القرآن بشيء، إيماناً منه بأن الأدب القرآني فوق قدرتهم اللغوية والفنية، والطريف أن الذي كان يحمل إليهم، هذا الزاد الأدبي الجديد على حياتهم، انسان مكث فيهم أربعين سنة، فلم يعهدوا له مشاركة في حلبة أدبية، ولا تميزاً في أي فن من فنون القول.

هذا عدد من خصائص الرسالة التي أعلنها النبي (ص) على العالم.

وهنا يأتي دور الخطوة **الثالثة**، لنؤكد على أساس الاستقراء العلمي، في تاريخ المجتمعات، ان هذه الرسالة بتلك الخصائص التي درسناها في

الخطوة الثانية، هي أكبر بدرجة هائلة من الظروف والعوامل، التي مر استعراضها في الخطوة الأولى، فإن تاريخ المجتمعات وان كان قد شهد في حالات كثيرة، إنساناً يبرز على صعيد مجتمعه، فيقوده ويسير به خطوة إلى الأمام غير أننا هنا لا نواجه حالة من تلك الحالات لوجود فوارق كبيرة.

فمن ناحية نحن نواجه هنا طفرة هائلة، وتطوراً شاملاً، في كل جوانب الحياة، وانقلاباً في القيم والمفاهيم التي تتصل بمختلف مجالات الحياة إلى الأفضل، بدلاً عن مجرد خطوة إلى الأمام. ان مجتمع القبيلة طفر رأساً على يد النبي، إلى الايمان بفكرة المجتمع العالمي الواحد، وان المجتمع الوثني طفر رأساً إلى دين التوحيد الخالص، الذي صحح كل أديان التوحيد الأخرى، وأزال عنها ما علق بها من زيف وأساطير. وان المجتمع الفارغ تماماً، تحول إلى مجتمع ممتلىء تماماً بل إلى مجتمع قائد يشكل الطليعة، لحضارة أنارت الدنيا كلها.

ومن ناحية أخرى ان أي تطور شامل في مجتمع، إذا كان وليد الظروف والمؤثرات المحسوسة، فلا يمكن أن يكون مرتجلاً، ومفاجئاً، ومنقطع الصلة عن مراحل تمهد له وعن تيار يسبقه ويظل ينمو ويمتد فكرياً وروحياً حتى تنضج في داخله القيادة الكفوءة لتزعمه، وللعمل من أجل تطوير المجتمع على أساسه. ان دراسة مقارنة لتاريخ عمليات التطور في مختلف المجتمعات، يوضح أن كل مجتمع يبدأ فيه هذا التطور فكرياً، على شكل بذور متفرقة في أرضية ذلك المجتمع وتتلاقى هذه البذور، فتكون تياراً فكرياً، وتتحدد بالتدريج معالم هذا التيار وتنضج في داخله القيادة التي تتزعمه، حتى يبرز على المسرح كواجهة جزء يعيش في المجتمع، تناقض الواجهة الرسمية التي يحملها المجتمع، ومن خلال الصراع يتسع هذا التيار حتى يسيطر على الموقف.

وخلافاً لذلك نجد أن محمداً (ص) في تاريخ الرسالة الجديدة لم يكن حلقة من سلسلة، ولم يكن يمثل جزءاً من تيار ولم تكن للأفكار والقيم

والمفاهيم التي جاء بها، بذور أو رصيد في أرضية المجتمع الذي نشأ فيه. وأما التيار الذي تكون من صفوة المسلمين الأوائل، على يد النبي فقد كان من صنع الرسالة والقائد، ولم يكن هو المناخ المسبق الذي ولدت فيه الرسالة، وتكون القائد. ومن أجل ذلك نجد ان الفارق بين عطاء النبي، وعطاء أي واحد من هؤلاء، لم يكن فارق درجة، كالفوارق التي تبدو بين بذرة. واخرى من البذور، التي تكون التيار الجديد، بل كان فارقاً أساسياً لا حد له، وهذا يبرهن على أن محمداً لم يكن جزءاً من تيار بل كان التيار الجديد جزءاً منه.

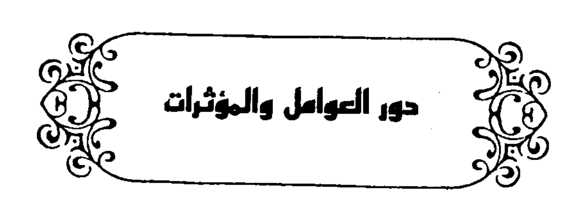
ومن ناحية ثالثة، يبرهن التاريخ على أن القيادة الفكرية، والعقائدية، والاجتماعية ، لتيار جديد، إذا تركزت كلها في محور واحد، من خلال حركة تطور فكري واجتماعي معين فلا بد أن يكون في هذا المحور من القدرة والثقافة، والمعرفة، ما يتناسب مع ذلك، ولا بد من أن يكون تواجدها فيه، طبقاً لما يعرف عادة من أساليب في حياة الناس ولا بد من ممارسة متدرجة أنضجته ووصفته على خط القيادة لذلك التيار. وخلافاً لذلك نجد أن محمداً (ص) قد مارس بنفسه القيادة الفكرية. والعقائدية، والاجتماعية، دون أن يكون تاريخه ـ كإنسان أمي لم يقرأ ولم يكتب، ولم يعرف شيئاً من ثقافة عصره، وأديانه المتقدمة ـ يرشحه لذلك من الناحية الثقافية. ودون أن تكون له أي ممارسات تمهيدية لهذا العمل القيادي المفاجىء.

وعلى ضوء ذلك كله ننتهي إلى الخطوة الرابعة، التي نواجه فيها التفسير الوحيد، المعقول والمقبول للموقف، وهو افتراض عامل اضافي، وراء الظروف والعوامل المحسوسة، وهو عامل الوحي، عامل النبوة الذي يمثل تدخل السماء في توجيه الأرض.

***

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدري مَا الكِتَابُ وَلاَ الأَيْمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيْم﴾[1].

(١) سورة الشورى (٥٢).



دور العوامل والمؤثرات

ولا يعني تفسير الرسالة على أساس الوحي، والامداد من السماء، بدلاً عن العوامل والظروف المحسوسة، الغاء هذه العوامل والظروف عن التأثير نهائياً، بل انها مؤثرة وفقاً للسنن الكونية، والاجتماعية العامة، ولكن تأثيرها إنما هو في سير الاحداث، ومدى ما ينجم عنها من مؤثرات لصالح نجاح الرسالة، أو لإعاقتها عن النجاح، فالرسالة ـ كمحتوى ـ حقيقة ربانية، فوق الشروط والظروف المادية، ولكنها بعد أن تحولت إلى حركة، إلى عمل متواصل في سبيل التغيير، يصبح بالامكان ربطها بظروفها وما تكتنفها من ملابسات وأحاسيس.

فإذا قيل مثلاً أن شعور الانسان العربي بالتمزق والضياع، وهو يجد نفسه يجسد آلهته ومثله الأعلى في حجر يحطمه في لحظة غضب، أو حلوى يلتهمها في لحظة جوع، جعله يتطلع إلى الرسالة الجديدة.

أو قيل مثلاً ان شعور البائس والكادح، في المجتمع العربي، بالظلم والتعسف من قبل المرابين والمستغلين، دفعه إلى تأييد حركة جديدة، ترفع راية العدالة، وتقضي على رأس المال الربوي.

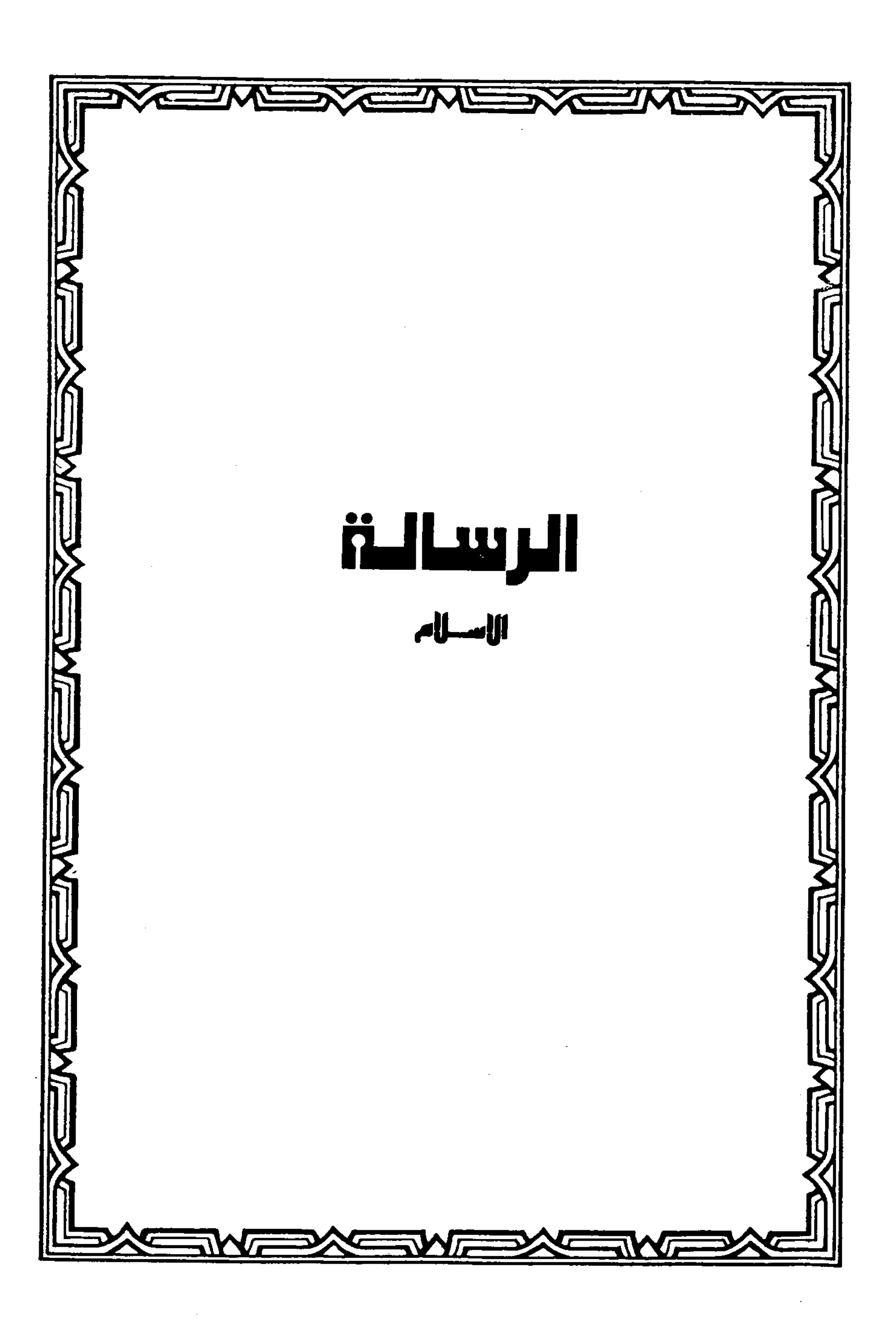
أو قيل ان الشعور القبلي، لعب دوراً مهماً في حياة الرسالة، سواء ما

كان منها على مستوى محلي، كمشاعر الصراع والتنافس بين قبائل قريش، وما أسبغه انتماء النبي إلى عشيرته من حصانة وهيبة، حمته من الأعداء، أو ما كان منها على مستوى قومي، كمشاعر عرب جنوب الجزيرة تجاه شمالها.

أو قيل: ان ظروف العالم المتداعي، والأحوال المحرجة التي مرت بها الدولتان العظيمتان الرومانية والفارسية على المسرح الدولي وقتئذ، أشغلت هاتين القوتين الكبيرتين بنفسيهما، وحالت دون تدخلهما السريع في اجهاض لحركة الجديدة في الجزيرة العربية.

إذا قيل شيء من هذا القبيل فهو امر معقول، وقد يكون مقبولاً، غير ان هذا إنما يفسر الأحداث، ولا يفسر الرسالة نفسها.





الرسالة

الإسلام

وأما الرسالة فهي الاسلام: دين الله الذي بعث به محمداً (ص) رحمة للعالمين.

وقد استهدف الإسلام قبل كل شيء ربط الإنسان بربه وبمعاده.

فمن الناحية الأولى ربط الإنسان بالإله الواحد الحق الذي تشير إليه الفطرة وأكد وحدة الإله الحق وشدد على ذلك لكي يقضي على كل ألوان التأله المصطنع حتى جعل من كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) شعاره الرئيسي.

ولما كانت النبوة هي الوسيط الوحيد المباشر بين الخلق والخالق فشهادة هذه النبوة بوحدة الإله والخالق وارتباطها بالإله الواحد الحق تعتبر أساساً كافياً لإثبات التوحيد.

ومن الناحية الثانية ربط الإنسان بالمعاد لكي تكتمل بذلك الصيغة الوحيدة القادرة على علاج التناقض والتي تحقق العدل الإلهي في نفس الوقت كما مرَّ بنا سابقاً.

وللرسالة الإسلامية خصائصها، التي تميزها عن سائر رسالات السماء، وسماتها التي جعلت منها حدثاً فريداً في التاريخ.

وفيما يلي نذكر عدداً من الخصائص والسمات بايجاز:

أولاً: إن هذه الرسالة ظلت سليمة ضمن النص القرآني، دون أن تتعرض لأي تحريف. بينما منيت الكتب السماوية السابقة بالتحريف، وأفرغت من كثير من محتواها، قال الله سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1].

واحتفاظ الرسالة بمحتواها العقائدي، والتشريعي، هو الذي يمكنها من مواصلة دورها التربوي، وكل رسالة تفرغ من محتوها بالتحريف والضياع لا تصلح أداة ربط بين الانسان وربه، لأن هذا الربط لا يتحقق بمجرد الانتماء الاسمي، بل بالتفاعل مع محتوى الرسالة وتجسيدها، فكراً وسلوكاً ومن أجل ذلك كانت سلامة الرسالة الاسلامية بسلامة النص القرآني الشرط الضروري لقدرة هذه الرسالة على مواصلة أهدافها.

ثانياً: إن بقاء القرآن نصاً وروحاً، يعني أن نبوة محمد (ص) لم تفقد أهم وسيلة من وسائل اثباتها. لأن القرآن وما يعبر عنه من مبادىء الرسالة والشريعة كان هو الدليل الاستقرائي، وفقاً لما تقدم على نبوة محمد (ص) وكونه رسولاً، وهذا الدليل يستمر ما دام القرآن باقياً. وخلافاً لذلك النبوات التي يرتبط اثباتها بوقائع معينة، تحدث في لحظة، وتنتهي كإبراء الأكمه والأبرص فإن هذه الوقائع لا يشهدها عادة إلا المعاصرون لها. وبمرور الزمن وتراكم القرون تفقد الواقعة، شهودها الأوائل. ويعجز الإنسان غالباً عن الحصول على أي تأكيد حاسم لها، عن طريق البحث والتنقيب.

وكل نبوة لا يمكن التأكد من دليلها، لا يمكن أيضاً أن يكلف الله سبحانه وتعالى بالاعتقاد بها، أو البحث عن وسيلة لإثباتها، إذ:

﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾.

---

(١) سورة الحجر (٩).

ونحن اليوم نعتمد في ايماننا بالأنبياء السابقين، صلوات الله عليهم وبمعاجزهم، على اخبار القرآن الكريم بذلك.

ثالثاً: إن مرور الزمن كما عرفنا، لا ينقص من قيمة الدليل الأساس على الرسالة الإسلامية، ولكن ليس هذا فقط. بل إنه أيضاً يمنح هذا الدليل أبعاداً جديدة، من خلال تطور المعرفة البشرية، واتجاه الإنسان إلى دراسة الكون، بأساليب العلم والتجربة، وليس ذلك فقط، لأن القرآن الكريم، سبق إلى الاتجاه نفسه، وربط الأدلة على الصانع الحكيم، بدراسة الكون والتعمق في ظواهره، ونبه الإنسان إلى ما في هذه الدراسة من أسرار، ومكاسب بل لأن الإنسان الحديث، يجد اليوم في ذلك الكتاب الذي بشر به رجل أمي في بيئة جاهلة قبل مئات السنين، إشارات واضحة إلى ما كشف عنه العلم الحديث، حتى لقد قال المستشرق الانجليزي (اجنيري) استاذ اللغة العربية في جامعة: أكسفورد عندما إكتشف العلم دور الرياح في التلقيح:

إن أصحاب الإبل قد عرفوا ان الريح تلقح الأشجار والثمار قبل أن يتوصل العلم في أوروبا إلى ذلك بعدة قرون[1].

رابعاً: إن هذه الرسالة، جاءت شاملة لكل جوانب الحياة، وعلى هذا الأساس، استطاعت ان توازن بين تلك الجوانب المختلفة، وتوحد أسسها وتجمع في اطار صيغة كاملة بين الجامع والجامعة، والمعمل والحقل، ولم يعد الإنسان يعيش حالة الانشطار بين حياته الروحية وحياته الدنيوية.

خامساً: إن هذه الرسالة، هي الرسالة السماوية الوحيدة، التي طبقت على يد الرسول، الذي جاء بها وسجلت في مجال التطبيق، نجاحاً باهراً،

---

(١) يشير بذلك إلى قوله سبحانه وتعالى ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ الحجر (٢٢).

واستطاعت ان تحول الشعارات التي أعلنتها، إلى حقائق في الحياة اليومية للناس.

سادساً: إن هذه الرسالة بنزولها إلى مرحلة التطبيق، دخلت التاريخ، وساهمت في صنعه. إذ كانت هي حجر الزاوية في عملية بناء امة حملت تلك الرسالة، واستنارت بهداها، ولما كانت هذه الرسالة ربانية، وتمثل عطاءاً سماوياً للأرض، فوق منطق العوامل والمؤثرات المحسوسة، نتج عن ذلك ارتباط تاريخ هذه الأمة بعامل غيبي، وأساس غير منظور، لا يخضع للحسابات المادية للتاريخ.

ومن هنا كان من الخطأ أن نفهم تاريخنا، ضمن اطار العوامل والمؤثرات الحسية فقط، أو ان نعتبره حصيلة ظروف مادية، أو تطور في قوى الإنتاج فإن هذا الفهم المادي للتاريخ، لا ينطبق على أمة، بني وجودها على أساس رسالة السماء، وما لم ندخل هذه الرسالة في الحساب كحقيقة ربانية، لا يمكن أن نفهم تاريخها.

سابعاً: إن هذه الرسالة لم يقتصر اثرها، على بناء هذه الأمة، بل امتد من خلالها، ليكون قوة مؤثرة وفاعلة في العالم كله، على مسار التاريخ، ولا يزال المنصفون من الباحثين الأوروبيين، يعترفون بأن الدفعة الحضارية للإسلام هي التي حركت شعوب أوروبا النائمة من نومها، ونبهتها إلى الطريق.

ثامناً: إن النبي محمد (ص)، الذي جاء بهذه الرسالة، تميز عن جميع الأنبياء، الذين سبقوه بتقديم رسالته، بوصفها آخر اطروحة ربانية، وبهذا أعلن أن نبوته هي النبوة الخاتمة، وفكرة النبوة الخاتمة لها مدلولان: أحدهما سلبي وهو المدلول الذي ينفي ظهور نبوة أخرى على المسرح. والآخر إيجابي وهو المدلول الذي يؤكد استمرار النبوة الخاتمة وامتدادها مع العصور.

وحينما نلاحظ المدلول السلبي للنبوة الخاتمة، نجد أن هذا المدلول قد انطبق على الواقع تماماً، خلال الأربعة عشر قرناً، التي تلت ظهور الاسلام، وسيظل منطبقاً على الواقع مهما امتد الزمن. غير أن عدم ظهور نبوة اخرى على مسرح التاريخ، ليس لأن النبوة تخلت عن دورها كأساس من أسس الحضارة الانسانية، بل لأن النبوة الخاتمة جاءت بالرسالة الوريثة، لكل ما يعبر عنه تاريخ النبوات من رسالات، والمشتملة على كل ما في تلك النبوات والرسالات من قيم ثابتة، دون ما لابسها من قيم مرحلية، وبهذا كانت هي الرسالة المهيمنة القادرة على الاستمرار، مع الزمن وكل ما يحمل من عوامل التطور والتجديد.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾[1].

تاسعاً: وقد اقتضت الحكمة الربانية، التي ختمت النبوة بمحمد (ص) أن تعد له أوصياء يقومون بأعباء الامامة والخلافة بعد اختتام النبوة. وهم اثني عشر إماماً، قد جاء النص على عددهم من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله، في أحاديث صحيحة، اتفق المسلمون على روايتها:

أولهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. وبعده الحسن. ثم الحسين. وبعد الحسين تسعة من آله على الترتيب التالي: علي بن الحسين السجاد، ثم محمد بن علي الباقر. ثم جعفر بن محمد الصادق. ثم موسى بن جعفر

(١) سورة المائدة (٤٨).

الكاظم. ثم علي بن موسى الرضا. ثم محمد بن علي الجواد. ثم علي بن محمد الهادي. ثم الحسن بن علي العسكري. ثم محمد بن الحسن المهدي.

عاشراً: وفي حالة غيبة الإمام الثاني عشر عليه الصلاة والسلام، أرجع الإسلام، الناس إلى الفقهاء، وفتح باب الاجتهاد، بمعنى بذل الجهد في استنباط الأحكام الشرعية، من الكتاب والسنة.

والفتاوى الواضحة هي تعبير اجتهادي، عن احكام الشريعة الإسلامية، التي جاء بها خاتم النبيين صلوات الله عليه وعلى الهداة الميامين من آله الطاهرين. وقد بدأنا بكتابة هذا الموجز عن اصول الدين، في اليوم السابع والعشرين من ذي الحجة ١٣٩٦. وانتهينا منه عصر اليوم العاشر من محرم الحرام ١٣٩٧. وقد فرغنا من كتابة السطور الأخيرة، والألم يعصر القلب، ويمزق النفس، إذ نعيش في يوم عاشوراء، ذكرى استشهاد بطل الاسلام الخالد، الإمام الحسين بن علي (ع)، الذي بذل دمه الغالي في مثل هذا اليوم، من اجل الصمود على خط المرسل والرسول والرسالة، وواجه الموت بنفسه، وكل احبته، بشجاعة منقطعة النظير، من أجل حماية هذه الرسالة، واقامة مقاييسها للذب عن المظلومين، والتخفيف عن المعذبين على الأرض وخر صريعاً مع الصفوة من ولده وصحبه، بأيدي الطغاة دفاعاً عن الإسلام والمسلمين، في كل مكان وزمان وعن أمة اراد الطغاة، ان يسلبوها ارادتها، ويجمدوا ضميرها الثوري وإحساسها بوجودها، فحرك أبو الشهداء بدمه ضميرها، وبصموده ارادتها، وبفاجعته احساسها الكبير، فإليك سيدي يا أبا عبدالله، أهدي ثواب هذه المقدمة، فبزخم دمك الطاهر حفظت كل هذه

الصروح الفكرية الشامخة، وبقدرة صوتك الثائر وصلت إلينا الرسالة سلمية معطرة بدم الشهداء، بدمك ودماء بنيك الطاهرين على مر التاريخ وما توفيقي إلا بالله هو حسبنا، وانا لله وإنا إليه راجعون.

النجف

محمد باقر الصدر

الفهرست